رواية واقعية!!
خادم الملكة
أميمة ماهر

خادم الملكة

رواية واقعية

أميمة ماهر

ليان للنشر

إهداء خاص:

أحمد هلال: أخي الكبير وزوج أختي وابن خالتي، قدمت لي الكثير وتحملت الكثير وأقل ما أستطيع أن أقدمه لك هو هذا الإهداء المتواضع .

أميرة ماهر: أختي الكبرى وأمي وكل ما أملك الآن في هذه الدنيا..
حفظكِ الله وبارك لي فيكِ.
.. أُحِبكُما ..

إهداء إلى:

إلى كل شخص قابلته في هذه الرواية على الحقيقة.. وتعرفت عليه عن قرب.

.

.

إلى "حسام": البطل الرئيسي في الرواية، والذي تعرَّض لكل أنواع المعاناة: النفسية، والجسدية، في حياته.

هذه الرواية مستوحاة من الواقع، مع تغيير الأسماء والأماكن وبعض الأحداث في محاولة لطمس ملامح الشخصيات حتى لا يتعرضون للأذى النفسي أو أي مضايقات من الآخرين .

- 1 -

الساعة الحادية عشر مساءً. الجو قارص البرودة. قطرات المطر تنقر على زجاج النافذة من الخارج، يظن من يراها أنها تستأذن على استحياء في الدخول إلى الغرفة؛ لتحتمي من برودة الجو.

* * *

رشف رشفة صغيرة من فنجان قهوته المضبوطة، ثم أتبعها بخروج كَمٍّ هائلٍ من دخان سيجارته؛ حتى رسم سحابة كبيرة، حجبت الرؤية بينهما.

تلاشت السحابة شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت ترى وجهه بوضوحٍ تامٍ. وجدَتْه هائمًا شاردًا، حاولت أن تُلملم من شفتيه أيَّ حروفٍ؛ علَّها تصنع بها كلمات، تفهم مايدور بداخله، ولكن دون جدوى. فهو أبدًا لم يتفوَّه بأي حرفٍ حتى يساعدها فيما تريد.

تركته على حاله لدقائق، ثم استحضرت شجاعتها وأخذت نفسًا عميقًا قائلة:«إتفضل، أنا سمعاك».

ارتعشت يده التي كان يتكئ بها على طرفِ الأريكة، وقعت سيجارته على السجادة، التقطها سريعًا بعد أن أحدثَتْ ثقبًا صغيرًا بها، جحظت عيناه وهو يبتلع ريقه بصعوبة، فتح أزرار قميصه العلوية، ظل يأخذ نفسًا لاهثًا تلو الآخر، وكأنه شعر باختناقٍ مفاجئٍ؛ حيث أيقن أن لا مفر هذه المرَّة من البوحِ لها بسِرِّه.

بنظرات زائغة تلفَّت حوله؛ ليتأكد من خلو الغرفة من أيِّ شخصٍ؛ خفيًا كان، أو ظاهرًا. نظر إلى الباب والنوافذ ليتأكد من أنها محكمة الإغلاق، التفت إليها وقال بصوتٍ مكتومٍ متلعثم، وحبَّات العرق تملأ جبينه رغم برودة الجو: «تحبي أحكيلك من أول فين..؟».

«اللى يريَّحَك. أنا معاك وسمعاك». قالتها بعد أن شعرت براحة داخلية لردّه. فها هو سوف ينطق أخيرًا .

- 2 -

أخذ منديلًا ورقيًا من علبة مرصَّعة بالأحجار الكريمة، ثم وضعها على منضدة زجاجية مستطيلة، أمام الأريكة التي يجلس عليها، جفَّف عرقه، وبدلًا من أن يرمي المنديل، ظلَّ يقطعه قطعًا صغيرة؛ حتى تهتَّك المنديل في يديه. لمحت ارتبابكه؛ فسحبت بهدوءٍ ورقة وقلمًا وكتبَتْ بها بعض الملاحظات التي عجزَ أن يراها.

زاد توتره بعد ردة فعلها تلك؛ فأخبرها بلطف أنه يرفض بشدة أن يعلم أحد ما سيرويه، وألا ترى قصته النور أبدًا، بل وطلبَ منها وعدًا بذلك.

ابتسمت له ابتسامة هادئة، محاولة إدخال الأمان إلى قلبه، وطمأنته بألا يقلق، وأنها ستغلق على سره زنزانة حديدية، وستلقي بمفتاحها في البحر إن أراد. بل وأنها لن تدعه يرحل هذه المرة كسابقتها، دون أن يتحدث معها ويُخرج ما في جعبته. فقد أتى إلى هنا خمس مرات متتالية على مدار شهرين، وفي كل مرة يأتي ليشرب قهوته وسيجارته، ثم يرحل سريعًا دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وكأنه يكتفي بالراحة التي يشعر بها في هذا المكان، أو ربما معها هي شخصيًا.

احمر وجهه بعد حديثها الأخير هذا، ونهض من الأريكة متجهًا إلى ركن في آخر الغرفة، متحججًا بإلقاء المنديل. ألقى بقطع المنديل التي ذابت في يده بداخل سلة صغيرة للمهملات، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، قد تكون كلمات تشجيعية لنفسه: حتى يتحدث دون خوف. وقد تكون كلمات تعبر عن ندمه لمجيئه هذا المكان.

التفت إليها وعاد إلى الأريكة في خطوات بطيئة متعثرة، وما إن وصل إليها؛ حتى ألقى بثقل جسده كله عليها. أغمض عينيه وهو يضع كف يده على جبينه.

ساد الصمت في الغرفة للحظات؛ حتى اخترق هذا الصمت دقات متتالية على باب الغرفة، قالت بصوت مرتفع وحاد: «ادخُل».

دخل رجلٌ كبيرٌ في السِّنِ، وقف أمامها على استحياء للحظات، ثم قال: «ممكن امشي؛ لأن الساعة 12 وكنت عايز اشتري دوا لبنتي..؟!».

أومأت إليه برأسها وقالت له: «إمشي انتَ يا عم حسين، أنا مش ماشية دلوقتي خالص».

قالت هذه الجملة وهي تنظر إلى وجه حسام لترى ردة فعله.

بالفعل تصرف كما توقعت، نظر إليها نظرة تعني الاستسلام، وعدم مقاومتها ثانية. لمعت عيناها لمعة سعادة، مختلطة بلذة الانتصار.

خرج عم حسين وأغلق خلفه الباب.

التفتت إليه سريعًا، قبل أن يخرج من حالة الاستسلام والوهن الذي دبَّ في جسده، وقالت: «ها.. هتحكيلي من أول فين..؟».

صمت قليلًا. ثم أشاح بنظره في حزن، وقال كأنه يحدِّث نفسه: «كان عندي وقتها 13 سنة».

- 3 -

اعتدلت في جلستها باهتمامٍ كبيرٍ، بعد أن انتشلت خصلة من شعرها الأسود الطويل، وأزاحتها خلف أذنها. سألته وهي تتحاشى النظر إلى عينيه حتى لا تزيد من توتره: «إيه إللي حصل وقتها يا حسام..؟».

أخرج حسام سيجارة من علبته الصفيح، فقد اعتاد أن يُفرغ علبة السجائر بعد أن يشتريها، في علبة صفيح بيضاء، هربًا من الصور المبتذلة التي أصبحت تُلصَق عليها مؤخرًا. وجدها تمد يديها له بولَّاعة نسائية صغيرة، نظر إليها وابتسم ابتسامة صفراء ثم أشعل سيجارته، أخذ نفسًا عميقًا منها وزفر دخانًا رماديًا

كليبًا، من فمه وأنفه معًا. تابع الدخان المتصاعد، وفي توتر أطال النظر إليه، فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذي بدأت معه المتاعب، ذلك اليوم الذي غربت فيه الشمس قبل أن تشرق.

رأى في ذاكرته البعيدة، والتي أهمل الالتفات إليها منذ سنين، فتى صغيرًا لم يتعدّ عمره الثالثة عشر، يجلس بجسدٍ نحيلٍ وطويلٍ على كرسيٍّ ضخمٍ، في غرفة الضيوف، يشاهد فيلمًا قديمًا للطفلة المعجزة حين ذاك: فيروز، وإذا بجرس الباب يدق. اتجه مسرعًا نحو الباب ليفتحه.

وقفت أمامه سيدة بالعقد الرابع من عمرها، ممشوقة القوام، شعرها ذهبي مموَّج وقصير، تفوح من جسدها رائحة عطر فرنسي، يبدو عليه أنه باهظ الثمن. مهتمة بكل تفصيلة صغيرة مرئية وغير مرئية من جسدها، تضع في إحدى قدميها خلخالًا ذهبيًا، مرصَّعًا بفصوصٍ من الماس الملون، وتم طلاء أظافر قدميها باللون الأحمر القاتم، بعناية شديدة.

ترتدي شبشبًا ذهبيًا بكعبٍ عالٍ، يكشف عن قدمين شديدتيْ النعومة والرقة، ترتدي جونلة بيضاء قصيرة وفوقها بلوزة حريرية متداخلة الألوان.

«إزيك ياحسام..؟ ماما موجودة..؟».

«أهلًا ياطنط إزيك..؟ أيوة موجودة، اتفضلي». أجابها وهو يفسح لها الباب لتمر من أمامه ورائحتها النفاذة الرائعة تخترق رئتيه دون استئذان.

دخل إلى المطبخ فوجد؛ أمه تقطع آخر جزءٍ بالخيارة، مدَّ يده يتناول شريحة منها، قبل أن تضعها مع باقي مكونات السلطة، في طبقٍ كبيرٍ.

«مين ياحسام..؟».

«دي طنط عزة ياماما». قالها بلا مبالاة، وهو يمضغ شريحة الخيار.

«عزة..! خير، إيه إللي فكَّرها بينا..؟». همست لنفسها داخليًا، ثم استطردت قائلة: «طب ياحبيبي روح انت اقعد معاها، أنا جاية حالًا».

- 4 -

جلس حسام معها وعيناه مثبتتان على الأرض خجلًا حتى تأتي والدته، لفت انتباهه وهو ينظر إلى الأرض قدم عزة الجميلة ولون المانكير المبهج الذي تضعه على أظافرها ورقّة الخلخال وفصوصه وهي تلمع فوق كاحلها؛ فلاحظت هي تلك النظرة، «كبرت ياحسام وطولت». قالتها عزة وهي تتفحص أجزاء جسده بعين تاجر ماهر. اضطرب لحديثها واحمرَّ وجهه، وقال لها: «ماما جاية حالًا يا طنط».

سادت لحظات من الصمت، حتى اخترقته كوثر بصوتها قائلة: «والله كنت لسه بفكر فيكي يا عزة، انتي وحشاني أووووي». قالتها كوثر متجهة ناحية عزة، مجففة يديها بالمنشفة؛ حتى تستطيع أن تصافحها.

«انتي أكتر ياحبيبتي».

تركهما حسام في حالة ترحيب وتبادُل للقبلات والأحضان، خرج من الغرفة اتّباعًا لتعليمات والدته الدائمة له، عند وجود أحد الضيوف بالمنزل؛ يجب أن يلتزم غرفته ولا يغادرها إلا بإذنٍ منها.

دخل إلى غرفته، ثم أدار المسجِّل الخاص به، ألقى بجسده على الفراش، أغمض عينيه ليستمتع بالموسيقى الهادئة التي يفضِّلها كثيرًا.

لَم يعلم كم دقيقة مرت عليه وهو في هذا الوضع؛ حتى شعر بيدٍ تتحسس جسده النحيل، وبدأت أنامل هذه اليد تغوص في رحلة استكشافية لباقي الجسد بأكمله.

انتفض سريعًا ونهض من الفراش، وبمجرد أن فتح عينيه قال مرعوبًا مما رأه: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قالت له فورًا: «إهدأ ياحسام، إنت كويس، إهدأ.. إهدأ». ظلت ترددها على مسامعه، حتى تطمئنه أنه في الحاضر وأنه يتذكر ماضيه فقط ويرويه لها.

انتبه قليلًا إلى الصوت؛ فتأكد أنه صوت مها. نظر حوله فوجد نفسه مازال في الغرفة معها، والسيجارة ما زالت في يده، بل وأوشكت على حرق أصابعه.

أطفأها سريعًا في طفّاية وُضِعَت بجانب علبة المناديل، وفتح علبته الصفيح ليشعل سيجارة أخرى، ولكن خاب أمله عندما وجدها هذه المرة خاوية.

نهض فجأة من على الأريكة، وكأن عقربًا قد لدغه للتو. التقط الجاكت الجلد الذي كان يضعه على ظهر الكرسي، وغادر بعد أن اعتذر لها، وأخبرها بأنه قد تأخر وبشعر بإرهاقٍ شديدٍ، خصوصًا أنه لم ينل أيَّ قِسطٍ من الراحة بعد وصوله من السفر، فقد مرَّ علىها مباشرة قبل أن يذهب إلى المنزل.

منحته ابتسامة عريضة، مدت يدها إليه وصافحته، أخبرته وهي تضغط على كفه المكتظ، بأنها ستنتظره غدًا؛ لاستكمال حديثهما. سحبَ يده من يدها بهدوءٍ، وهو ينظر بخجلٍ إلى الثقب الذي أحدثته سيجارته بالسجادة، دون أن ينطق بكلمة. خرج من الغرفة مارًا بردهة كبيرة، يرتص بها عددٌ كبيرٌ من الكراسي الجلد السوداء والخاوية. فقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، وهو الميعاد الذي يتعمد أن يحضر فيه دائمًا؛ تجنُّبًا لرؤية أيّ شخصٍ يعرفه أو لا يعرفه. فتح باب العيادة وخرج، بعد أن ألقى نظرة تأكيدية على لافتة بيضاء كبيرة، مكتوب عليها بالخط الأسود العريض:

(عيادة الدكتورة: مها أبو الحسن، للأمراض النفسية والعصبية)

ظلَّ واقفًا لنصف دقيقة أمام اللافتة مبتسمًا، ربما ابتسامة راحة ورضى أنه قد اتخذ القرار الصائب أخيرًا، وربما ابتسامة حسرة على نفسه وعلى ما وصل إليه. أخذ نفسًا عميقًا وهو يرتدي الجاكت، ثم استقل المصعد وهبط إلى الدور

الأرضي. خرج إلى الشارع وهو يلتفت يمينًا ويسارًا؛ ليتأكد من خلو الشارع من المارة.

- 5 -

اتجهت إلى مكتبها، وقبضت على كوب الماء القابع دائمًا على سطح المكتب ينتظرها، ثم تناولته على جرعة واحدة. لملمت بعض الأوراق ووضعتها في حقيبة صغيرة، اعتادت أن تضع بها كل أوراقها المهمة، وملفات بعض المرضى، التي تحتاج إلى الدراسة المتأنية بالمنزل. أخرجت من حقيبتها ميدالية ضخمة للمفاتيح، كانت تضم مفتاح العيادة، مفتاح السيارة، مفتاح منزلها، مفتاح شاليه الساحل الشمالي. كما كانت تضم مفاتيح صغيرة لأدراجها الخاصة: سواء في العيادة أو المنزل. أغلقت العيادة، وبعد أن وصلت إلى الدور الأرضي؛ اكتشفت أنها لم تستقل المصعد، وأنها هبطت درجات السلم دون أن تشعر.

ضحكت بصوتٍ مرتفعٍ، كطفلٍ عابثٍ لا يعبأ بمن حوله، ثم وضعت يدها على فمها سريعًا، لتكتم ضحكتها في خجلٍ، ومضت في طريقها إلى الشارع. كانت تضحك دائمًا خارج المنزل فقط، وكأنها تسرق من الزمن هذه اللحظات الجميلة، قبل أن تعود إلى قدرها؛ وكأنما تتحايل على القوانين التي فرضتها علىها الحياة.

ظلَّ جالسًا في سيارته لعشر دقائق، يستمع لموسيقاه المفضلة. قاد سيارته في هدوءٍ وهو في عالمٍ آخر مع صوت الموسيقى، حتى إنه لم يرَ دكتورة مها وهي تعبر الطريق أمامه، حيث وقف بسيارته في منتصف الطريق ينتظر الإشارة؛ لينطلق بعدها. أيضًا هي لم تنتبه له، فقد كانت سيارته محاطة بستائر قاتمة، والزجاج الأمامي للسيارة كان مغطى بحبّات المطر المتساقط.

* * *

- 6 -

وصلت إلى شقتها في مدينة نصر، فوجدته جالسًا على كرسي في الردهة، متجهًا للباب مباشرة، ينتظر لحظة وصولها.

«مش لسه بدري..؟!». سألها وهو ينظر إلى ساعته باهتمام مُزيَّف. مطت شفتها قائلة: «من إمتى يعني بتهتم بميعاد رجوعي..؟».

قاطعها في عدم استعناء، وهو يلوح بيده: «مش عايز كلام كتير. قولتي إيه في خروجة بكره..؟».

«تاني ياكريم..؟ ما احنا اتكلمنا في الموضوع ده».

«بقولك إيه.. زي ما أنا بديكي حقك تديني حقي».

«يووووه.. أنا تعبانة دلوقتي ومحتاجة دش وعايزة أنام، نبقى نتكلم بكرة».

«ماشي يا مها، بس بكرة الصبح تقولي لي قرارك لأن مافيش وقت: الخروجة هتبقى بكرة بالليل».

-7 -

ركض حسام سريعًا إلى غرفته، وألقى بجسده على السرير دون أن يخلع ملابسه أو حتى حذاءه. كان يشعر بإرهاقٍ وتعبٍ شديدين، ولكنه لم يستطع النوم. ظلَّ يتقلب مرة ومراتٍ على الفراش، ولكن هيهات.. فكيف يخلد إلى النوم بعد أن بدأ في كشف سِرِّه لأحدٍ..؟

«سِرّ..؟ سِرّ إيه..؟ أنا مقولتش أي أسرار". هكذا حدَّث نفسه داخليًا، «أنا ماحكتلهاش غير لجد ما، ما..! ».

وبدأ في استعادة ذكرياته من جديد، واستعادة ذكريات هذا اليوم الذي قلبَ حياته رأسًا على عقب.

وها هو يشعر بلمسة يدها من جديد، وكأن كل شيءٍ يُعَاد حدوثه الآن. حاول أن يكشف تفاصيل وجه الشبح الواقف أمامه؛ ولكنه رأى الشبح يبتعد ويبتعد، وفجأة أضاء الشبح نور الغرفة:

«طنط عزة..!».

«أيوة طنط عزة.. إيه شوفت شيطان عشان تستعيذ بالله..؟».

«لا أبدًا يا طنط. أنا آسف، أصل ماكنتش شايف حضرتك في الظلمة».

«طب ياحبيبي.. مالك خايف كده ليه..؟ تعالى ماتخافش». قالتها وهي تقترب منه. لمست بكفِّ يدها وجهه، وبالكف الآخر تخللت أصابعها شعره الكثيف والناعم، ظلَّت تحركها حركات دائرية رقيقة، جعلت جسده كله يرتخي، وساعد في ارتخائه أكثر، رائحة العطر التي كانت تفوح من جسدها الناعم البض.

كانت لمساتها كمفعول السحر، تعرف مواطن الضعف، ومن أين تُؤكَل الكتف؛ لذا لا تستطيع فريستها المقاومة كثيرًا. قد تحاول الفريسة التململ والفرار في البداية، ولكن في النهاية ترضخ لها وتستلم، كاستسلام الغزال في فم الأسد. تركت شعره ومسكت كفَّه بيديها، حاول أن يسحب كفَّه الصغير من بينهما، ولكن دون جدوى.

«حضرتك وخداني على فين ياطنط..؟».

«تتغدى معانا».

قال بخوفٍ واضحٍ «لا معلش.. أصل ماما محرِّجة عليا أخرج من أوضتي، لو في ضيوف موجودين».

"ماما مين دي اللى تحرج عليك وأنا موجودة..؟ وبعدين أنا مش ضيوف ياحبيبي».

اشتدت قبضتها على كفه، وسيطرت بذراعها على جسده النحيل وفي عينها بريق سعادة لا تستطيع إخفاءه؛ لإيجاد ضالتها المنشودة.

توفّى زوجها منذ سنتين، ولم تحزن أو تذرف دمعة واحدة، ولو من باب المجاملة لأفراد عائلته. فلا وقت لديها للمجاملات، ولا مشاعر تخزنها لمثل هذه المناسبات. فالرجال بالنسبة لها وسيلة لا غاية، نعم هم مجرد وسيلة لتحقيق لذة ونشوة عارمة تصل بها إلى مبتغاها، وينتهي الرجل بالنسبة لها إما بموته أو بالخروج عن طوعها؛ لتبدأ البحث من جديد عن مواصفاتها الخاصة. قالت بصوتٍ حادٍ: «إيه يا كوثر.. لسه كتير على الغدا..؟».

«لا ياحبيبتي خلاص أنا جايه اهو».

«حسام.. إيه اللي خرجك من أوضتك..؟». سألته كوثر بغضبٍ عندما وجدته يجلس بجوار عزة على منضدة الطعام.

«ملكيش دعوة، حسام هيقعد جنبي وأنا اللي هاكله بايديا كمان». أجابتها عزة بابتسامة تحمل معاني كثيرة.

«والنبي يا عزة، ماتبوظيش اللي أنا بعمله».

ضحكت عزة ضحكة خليعة، وقالت بتحدٍّ سافرٍ: «هو أنا لسه بوظت حاجة..؟».

لم تعِ كوثر وقتها مقصد عزة، ولم يأتِ بخاطرها أبدًا ما ستفعله عزة بفلذة كبدها، ربما لو علمت وقتها لدفنتها حية في مكانها، أو قطّعتها إربًا وألقتها كوجبة عشاء دسمة للكلاب الضالة.

جلس الثلاثة سويًّا يتناولون الطعام، ولم ترفع عزة عينيها من على حسام. ظلت تفكر طوال الوقت كيف ستُقنع فريستها الجديدة برغباتها الشاذة المكبوتة، رغباتها التي لم ترَ النور منذ ما يقرب من عامٍ.

فبعد وفاة زوجها بثلاثة شهور؛ تعرَّفَتْ على شابٍ في العشرين من عمره، وأخذت بعض الوقت في ترويضه؛ حتى أصبح كما تريد. لكن سرعان ما نضج الشاب وشعر أن ما يفعله غريب وشاذ، بل وغير مألوفٍ في مجتمعنا الشرقي. ومن الواضح أن

فطرته كانت سليمة؛ فلم يتحمل شذوذها كثيرًا، فلاذ بالفرار منها، وفقدت كل أنواع الاتصال به.

ولكن رغباتها شديدة الإلحاح عليها دومًا، ولذلك سرعان ما تلبي النداء. التفت الجميع إلى باب الشقة، حيث كانت صوت المفاتيح تنبعث من خلفه: «أهلًا ياريم ازيك». ابتسمت عزة ابتسامة مصطنعة، وهي تُلقي على ريم السلام. امتعضت ريم وتغيَّر وجهها، ولكنها سرعان ما تمالكت أعصابها إرضاءً لوالدتها فقط: «إزيك ياطنط..؟». أجابتها وهي تضغط على أسنانها بغِلّ.

شعرت عزة بتقلص عضلات وجه ريم، فهي تدرك جيدًا أن هناك حاجزًا ما يحول بينها وبين ريم.

«اغسلي إيدك ياريم وتعالي عشان تاكلي».

«لا ياماما أنا هنام شوية، الامتحان كان صعب أوي النهارده وتعبانة».

«طب عملتي إيه..؟».

«الحمد لله حليت كويس».

كانت ريم وقتها في السنة النهائية في كلية الهندسة، جامعة القاهرة. وكانت متفوقة في دراستها.

دخلت غرفتها وقبل أن تغلق الباب خلفها؛ وجدت من يدفع الباب وبسارع بالدخول: «إيه يابنتي مالك». سألتها كوثر هامسة بعد أن أغلقت الباب خلفها.

«ماأنتي عارفة يا ماما إني مش بحب الست دي..!».

«بس بس.. وطِّي صوتك لتسمعك».

«ليه يا ماما بحس إنك ضعيفة قدامها..؟!».

«ضعيفة..؟!». رددتها كوثر خلف ابنتها، وكأنها تلقَّت صفعة على وجهها.

* * *

تركته مها غاضبة، ذهبت إلى الحمّام وفتحت "الدش"، تركت نفسها للمياه المنهمرة على رأسها واستسلمت لها، اختلط الملح الأجاج بالعذب الفرات: فاستحالت التفرقة بينهما.

خمرية اللون، شعرها شديد السواد غزير، يغطي ظهرها بالكامل مع وجود لمعة جذابة به. عيناها واسعتان عسليتان، أهدابها سوداء طويلة، أنفها صغير وحاد، لديها شفاه رفيعة ولكنها تزيدها جمالاً على جمالها. يمتزج بخمرية بشرتها لون وردي وكأنها عادت لتوّها من قضاء عُطلة أسبوعية في أحد الأماكن الساحلية. قوامها ملفوفٌ كقوام غزالة بَرِيّة، تمتلك نهدين مكورين جميلين، وأردافها ممتلئة قليلًا فتزيدها جاذبية عند ارتداء الملابس الضيقة. أغمضت عينيها واعتصرتها بحسرةٍ وحزنٍ، وهي تسبّ وتلعن اليوم الذي قبلت الزواج منه. نعم كانت تتمنى أن يرزقها الله بزوجٍ يمنحها الحرية؛ لتلتفت إلى عملها. فهي تعشق عملها وتجد متعة خاصة به، بل وتشعر أن كل مريض لديها هو بمثابة طفلها المدلل، والوحيد، تعطي له كل وقتها، وتكون صدره الحنون وحضنه الدافئ. ولكنها لم تكن تتخيل أبدًا أن الله سيبتليها في يوم من الأيام برجلٍ"ديوث" لا يعبأ بمن يضايقها، ولا يلتفت لمن يلمسها، ولا يتحرك له ساكنُ؛ عندما يرى بعينيه من يراودها عن نفسها.

* * *

كان قد ابتاع لها عيادتها الواسعة في هذا الحي الراقي، وجهزها بكل الأدوات الحديثة، بل وميَّزها عن باقي العيادات بديكور مبهرٍ، غالي الثمن. يشعر من يجلس به أنه يجلس بقصرٍ فارهٍ. كانت محط أنظار زميلاتها وزملائها بعد التخرج أو بالأخص بعد زواجها من كريم، كانوا يحسدونها عليه. فها هم مازال بعضهم يعمل لدى الأطباء كمساعدين، والبعض الآخر في مستشفيات حكومية برواتب زهيدة. أما جزء صغير منهم قد التحق بمهن أخرى بعيدة كل البعد عن مؤهلاتهم؛ لعدم وجود عملٍ يُلبّي احتياجاتهم المادية.

"ولكن كيف يقبل عليّ هذا..؟ أيقبل أن أكون الفاكهة التي يتناولها أصدقاؤه بالتناوب.؟ فيقضم كل واحدٍ منهم قطعة منها".

لقد وافقت مرة واثنتين بهذه المهزلة المُشينة، على مضض: لعدم الرغبة في إغضابه. كانت تأمل كل مرة أن يتغير، أو ربما شعرت أنها فترة وستنقضي؛ ولكن هذه المرة مجرد خروجة ترضي أصدقاؤه؛ ليستمتع بنظراتهم الدونية الحقيرة لها ولكل جزءٍ في جسدها.

«بأي منطق وبأي مبرر أقبل هذا الوضع». هكذا كانت تسأل نفسها دائمًا. فتحت عينيها بصعوبة؛ لترى وجهها في المرآة شاحبًا، وعينيها شديدة الاحمرار. قد يكون هذا الاحمرار بسبب البكاء الهستيري الذي انتابها، أو بسبب بقايا صابون تسلل إلى عينيها خلسة وهي لا تشعر. أغلقت "الدش" وخرجت من البانيو تلف منشفة كبيرة حول جسدها، ثم لفَّت شعرها بمنشفة أخرى صغيرة عجزت أن تداري جمّاله وجاذبيته، وهو يتساقط منه الماء على الأرض كحبَّات لؤلؤ منثور. دخلت الغرفة: فوجدته قد غطَّ في نومٍ عميقٍ، نظرت إليه نظرة اشمئزاز، ثم رفعت يديها بكل قوتها إلى أعلى لترفع شعرها الغزير، ربما تمنت وقتها أن تنزل بقوة يديها تلك على رأسه لتحطمه. ارتدت قميصها الستان القصير، وغاصت تحت البطانية السميكة وهي تتجنب ملامسة جسده قدر الإمكان.

* * *

- 10 -

ظلّ حسام يتقلب على فراشه، يتمنى أن ينام، أن يهرب من ماضيه، ولكن ماضيه كان يلاحقه في كل وقت. كأنما هو ظِله الذي يلاحقه أينما ذهب؛ فيطارده كلصٍّ هاربٍ.

تذكر ثانية ماحدث..

ساد الصمت للحظاتٍ بينهما ثم سألته: «انت هتبدأ الدراسة إمتى يا حسام..؟».

«كمان4شهور يا طنط.. أنا لسه مخلّص امتحانات الأسبوع إللي فات».

ردت مبتسمة: «كويس أوي».

لم يفهم معنى حديثها، ولم توضح هي ما تقصده. ظلا يتحدثان لدقائق في أمورٍ عامة وعادية، فكانت أحاديثها شيقة تجبر حتى الشخص الخجول أو الغير اجتماعي أن يتجاوب معها في الحديث.

- 11 -

خرجت من غرفة ريم وكل شيء بداخلها يريد أن يصرخ قائلاً: "نعم أنا ضعيفة أمامها، وسأظل ضعيفة ما حييت". فكوثر وعزة أصدقاء منذ الطفولة، ولكن عزة كانت شخصيتها أقوى بكثير من كوثر، فكانت القائد والزعيم. هي من تقول أين ستذهبان، وكم وقت تمكثان، ومتى تبدآن المذاكرة ومتى تنتهيان. وبالرغم أن كوثر تزوجت شابًا مكافحًا، يده قصيرة وعمله لا يدرّ عليهم ربحًا كبيرًا، بينما تزوجت عزة من رجلٍ ثري، كانت تسيطر عليه بشكل مُلفت للنظر، حتى إن أهله جميعًا كانوا يندهشون من التغيُّر الكامل الذي بدا واضحًا على شخصيته؛ إلا إن عزة ظلت على صلة بكوثر، فكانت كل فترة تزورها أو تتصل بها، وعندما تقوم بزيارتها فلا تخبرها قبلها، دائمًا كانت تهبط عليهم من السماء، كالقضاء المستعجل دون ميعاد مُسبق. أما زوج كوثر فكان دائمًا لا يحبّذ هذه العلاقة بينهما، ولايرتاح

لها. فسيطرة عزة الواضحة على كوثر، كانت تغضبه كثيرًا، إلا إنه لطيبة قلبه؛ كان يرضخ في النهاية لمُحايلات كوثر عليه، بألا يتعامل مع عزة بشكل سيء، فهي في الأول وفي الأخر ضيفة، تأتيهم كل فترة وترحل في سلامٍ، هكذا كانت تحاول أن تقنعه. أما ريم ابنتهما فقد ورثت من والدها كُره عزة، وبغض طريقتها في السيطرة على من حولها.

- 12 -

تعثرت خطوات كوثر وهي تركض في اتجاه الردهة، ملبية نداءات عزة المتتالية. انتهى الجميع من تناول الغداء، ولم ينتهِ حُلم عزة في الحصول على حسام. وبينما كان هو ووالداته ينطفان السفرة وينقلان الصحون إلى المطبخ؛ وقفت عزة في الحمّام ترقص فرحًا، ظلت تفكر للحظات في الخطوة التالية. وبعد أن فكرت جيدًا؛ أخرجت من حقيبتها ورقة وكتبت بعض الكلمات سريعًا، ودفنت الورقة داخل يديها بعد أن طوتها جيدًا. التفتت حولها قبل أن تدس الورقة في يده، بعد أن تأكدت من انشغال كوثر في المطبخ لتحضير الشاي: «إيه ده ياطنط..؟». سألها حسام مندهشًا من طريقتها، وهي تضع الورقة في يده: «اقرأها وانت تعرف، وإياك إياك... حد يعرف الموضوع ده». قالت هذه الجملة بنبرة تهديد شديدة، لا تحتمل أي مزاح.

* * *

استيقظت على صوت كريم وهو يصيح بكلمات غاضبة. لم تتوضح معناها جيدًا: «في إيه يا كريم..؟». سألته مستنكرة لتصرفاته، وهي تضع يديها أمام وجهها لتحجب الإضاءة القوية، والمنبعثة من مصباح الغرفة الذي تعمّد كريم أن ينيره وهي نائمة: لاستفزازها.

«فين الشراب الأسود بتاعي..؟».

«عندك في الدرج».

«إيه ده..؟ انتي هتكملي نوم ولا إيه..؟».

«انت عايز مني إيه». سألته بعد أن زفرت متأففة.

«عايز أعرف قررتي إيه..؟».

«جايه ياكريم جايه، ارتحت..؟».

«بجد ياحبيبتي..؟». سألها بودّ، اصطنع عدم تصديقه لموافقتها بالرغم أنه كان متأكدًا من عدم صمودها في الرفض طويلًا، ثم استطرد: «طب كملي نوم يا حبيبتي عشان تكوني فريش النهارده».

وضعت الوسادة فوق رأسها بغلٍّ: لتستكمل نومها ويا ليتها استطاعت استكماله.

* * *

رنَّ جرس الموبايل، فالتقطه في تكاسل من على "الكومدينو": ليتفاجأ باسمها: «ألو».

«ازيك يا حسام..؟».

«ازيك دكتورة مها..؟».

«أنا بعتذر النهارده عن الجلسة يا حسام، عندي ظروف طارئة».

«لعل المانع خير..!».

«خير إن شاء الله، معلش هقفل معاك عشان ألحق أكلم باقي المرضى اعتذرلهم».

اخترقت كلمة مرضى أذنه، كاختراق الصاروخ لمبنى البنتاجون: فتساقطت مشاعره وأعصابه، كسقوط الضحايا في تلك الحادثة الأليمة: «أوك يادكتور.. إمتى المعياد الجاي..؟». قالها على مضض بعد أن بلع ريقه بصعوبة.

«هكلمك يا حسام وأقول لك، أو هيكلمك أحمد المساعد بتاعي».

انتهت المكالمة، ولكن لم ينتهِ رنين صدى كلمة "مرضى" في أذنه.. «مرضى..؟! هو انا مريض فعلًا، ولا دي مجرد ميول مختلفة عن باقي الناس..؟! طب لو مجرد ميول: روحت لدكتور ليه..؟ طب هو أنا عايز أبطل إللي أنا بعمله ولا لأ..؟! هو لو مكنتش قابلت عزة في حياتي؛ كنت هبقى كده بردو، ولا هي إللى خلتني كده..؟!».

عزة..! عندما نطق اسمها؛ دقَّ قلبه وتعرق جبينه. كان اسمها كفيلًا بأن يجعله يضطرب في أي وقت وفي أي مكان، كان كفيلًا أن يجعله يتقبل أن يكون مريضًا دون ضيق أو تذمر، بل ويفتخر بمرضه.

أخرج سيجارة كالعادة، فأول ما يفعله في الصباح عند الاستيقاظ هو التدخين، أشعلها وتذكر من جديد ماحدث..

* * *

- 15 -

أغلق الباب خلفه بعد أن رحلت عزة، وبعد أن جلست والدته تشاهد التلفاز، وبعد أن تأكد من عدم مراقبة أحد له. فتح الورقة بشغف ليعرف سريعًا ما بداخلها.

وجد بالورقة عنوان فيلتها بالمقطم وجملة "أنتظرك غدًا في الثانية عشرة ظهرًا، إياك وعدم الحضور، لا تخبر أحدًا بهذا المعياد، سأخبرك بكل شيء عندما تحضر".

بدأت الحيرة تلعب دورها معه، ماذا تريد منه..؟ فكّر بسذاجة أنها ربما ستحضر له مفاجأة مثلًا، أو قد تحتاجه لشراء بعض الاحتياجات لها. ولكن لماذا أصرت ألا يعلم أحد بهذا اللقاء..؟ ثم فكّر هل يخبر والدته أم لا. فتذكّر سريعًا نظرة عزة الحادة له وتهديدها الصريح؛ اضطرب وخفق قلبه ليتراجع على الفور عن قراره بالإفصاح.

قرر أخيرًا ألا يخبر أحدًا، وأن يذهب إليها في الميعاد، ثم يقرر بعدها ماذا سيفعل.

ولكن ماذا سيقول لوالدته غدًا؟ الدراسة انتهت والدروس كذلك، ظل يفكر لبرهة من الوقت حتى قرر ماذا سيقول.

كانت تباغته أحاسيس مختلفة: إحساس بالخوف يمتزج بإحساس القلق يذوب مع إحساس الفرح، بأنه أصبح لديه سر ولا تعلم به والدته أو أخته، إحساس المراهق عندما يشعر أنه بلغ لأول مرة.

مرت الساعات بطيئة مملة، حاول أن يستغلها في تخيل الغد وما سيحدث فيه، ولكن لم يصل خياله أبدًا إلى ما سيحدث.

جاء الصباح أخيرًا بعد ليلٍ طويل، ارتدى "تي شيرت" وبنطلونًا جديدين، قد أهدتهما له أخته في عيد ميلاده الأخير، ولم يجد المناسبة التي يرتديهما فيها، فهم لا يخرجون ولا يتنزّهون، وحياته لا تتعدى سور المدرسة، وجدران المنزل. فتح باب

الغرفة؛ ليجد والدته تمر من أمام غرفته بالصدفة التفتت له باستغراب وسألته:

«إيه ده.. انت رايح فين.؟».

«أنا رايح النادي إللي مشترك فيه حاتم صاحبي يا ماما».

«ليه..؟». سألته باستغراب.

«هنلعب كورة».

«طب مقولتليش ليه..؟ ». أجابته باستغراب أكثر.

«صحابي كلموني بالليل، ملحقتش أقولك».

«مممم .. طب خلي بالك على نفسك ومتتأخرش».

قفز قفزة واحدة إلى باب الشقة، وخرج سريعًا مستعجلًا ذهابه إلى مصيره المحتوم.

* * *

فتح الدولاب، بعثر الفساتين وهو واقف أمامهم يتفكر مشتت، أيهما يختار وأيهما أكثر إثارة، بينما كانت مها تجلس على السرير تشاهد أفعاله الحمقاء بتقزز واحتقار.

«إيه رأيك يا حبيبتي في الفستان ده..؟». رفع واحدًا منهم أمامها، بعد أن وقع اختياره أخيرًا عليه: «أي حاجة يا كريم، مش هتفرق». أجابته وهي تقلّم أظافرها دون أن تنظر له.

«طب قومي بلا جهزي نفسك يابيبي».

شعرت بغثيان من كلمة "بيبي" تلك.

"أي بيبي التي تتكلم عنها..؟ طفلتك التي تعرضها في السوق كل يوم؛ لتكون سلعة مجانية يشاهدها الرجال، وتتلذذ أنت باستمتاعهم..؟».

لم تستطع رفض الزواج منه، بل كان بالنسبة لها فرصة ذهبية، فقد كانت في حالة مُلِحَّة للخروج سريعًا من حصار أسرتها لها. تجرعت المُر: حتى تستطيع أن تنتهي من دراستها في كلية الطب. فتكاليفها كانت باهظة وحالتهم المادية كانت بسيطة. فأمها سيدة عاملة في إحدى المصالح الحكومية؛ من أجل أن توفّر لهم حياة كريمة هي وإخوتها، ولكن لم تكن طموحاتها مجرد حياة كريمة أبدًا، بل كانت ترى في أحلامها مستقبلًا عظيمًا، يتمثل في عيادة كبيرة، ومرضى يقفون طوابير؛ لتكشف عليهم. فاقت طموحاتها سقف هذا المنزل الضيق وهذه الحياة المملة الرتيبة.

قابلته في مول تجاري كبير، كانت تذهب إليه للمشاهدة فقط، والتحسر على حالها وعلى ضيق ذات اليد. رآها في إحدى المرات مع صديقاتها، سحرته بجمالها وسحرها بأمواله. اصطنعت الرفض في البداية؛ فلاحقها في كُلِّيَّتها، وفي طريقها، وفي

كل مكان تذهب إليه. أعجبها تصميمه عليها؛ فوافقت عليه. لم يمرّ على ظهور نتيجتها في الإمتحان سوى أسابيع معدودة، إلا وكانت في بيته.

اكتشفت في أول ليلة أنه غير قادرٍ على القيام بأبسط مهام الزوج؛ فظنته توترًا أو خجلًا. مرت الأيام، وكانت تهض بعد كل علاقة حميمية وهناك شيء ما ناقص. ماهو هذا الشيء وما كنهه لا تعلم فقط هناك شيء ناقص.

تقبّلت الوضع بصبرٍ رحب، فكلامه المعسول وأمواله الوفيرة كانت تعوضها كثيرًا عن هذا الهراء من وجهة نظرها، وأهم من هذا وذاك أنها أصبحت ناجحة في عملها، خصوصًا بعد أن أهداها تلك العيادة بعد زواجهما بعدة أشهر، وكان هذا أهم حدث في زواجها؛ فأعمى عينها عن أشياء كثيرة كان لايجب أن تغض بصرها عنها.

مرت الأيام بينهما، وبدأت طلباته الغريبة المتكررة تفضحه، وتوضح لها الرؤية أكثر. كان يستضيف أصدقاءه بالمنزل، بل ويكون سعيدًا جدًا لوجودهم، وكانت هي سعيدة جدًا لسعادته.

أيضا تكون العلاقة الحميمية بعد رحيل أصدقائه مختلفة تمامًا، فتصبح كاملة لاينقصها شيءٌ، وممتعة لها لأبعد الحدود.

لم تلقِ للموضوع بالاً في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما بدأت تلتفت إلى هذا الترابط العجيب، خصوصًا أنها طبيبة واعتادت على كل ما هو غريبٌ من مرضاها.

وضعته تحت الملاحظة، في محاولة منها لتحليل المشكلة ومعرفة أسبابها، ومن ثم محاولة حلها؛ حتى أدركت السبب.

* * *

- 17 -

وقف أمام باب الفيلا في المقطم، وهو يحك فروة رأسه بأصابعه، وعيناه مغلقتان من ضوء الشمس. وبعد أن تأكد من صحة العنوان الذي ذهبَ إليه؛ تقدَّم إلى باب الفيلا الأمامي. وجد رجلًا أسمر نحيفًا جدًا وقصيرًا، يرتدي جلبابًا لا تستطيع أن تميز إذا كان لونه رماديًا أم أنه أبيض واتسخ من أتربة الجو، ويبدو على هيأته وملامحه أنه نزح من إحدى قُرى الصعيد؛ هربًا من الفقر المدقع هناك، كان يجلس أمام الفيلا على أريكة خشبية متهالكة.

«هي دي فيلا طنط عزة..؟». سأله حسام ببراءة.

«طنط..!». استنكر البواب هذا اللقب، ثم استكمل حديثه: «أيوة هي نقولها مين..؟».

«قولها حسام، ابن كوثر صحبتك».

رمقه بنظرة فاحصة من أعلى إلى أسفل، ثم دخل الفيلا وهو يتمتم ويهمهم. فقد اعتاد أن يأتي إلى الفيلا شبابٌ في مثل سنه، يمكثون وقتًا ليس بقصيرٍ، ويكررون زيارتهم على فترات متقاربة، ولم يعلم أبدًا ما يحدث بالداخل. خرج مهرولًا بعد دقائق قليلة، وكأنه أخذ تعليمات من وكيل النيابة بدخول المتهم التالي قبل أن يهرب.

«بتقولك اتفضل».

عبر في حديقة الفيلا وقلبه يرتجف خوفًا وفرحًا. كانت الأشجار العالية تحيط بالحديقة من الجانبين؛ فتُسرِّب إليها هواءً باردًا، يخفف من حدة سخونة الشمس الحارقة بالخارج . وبالجانب الأيسر للممر كان يوجد مسبح صغير تعتليه أريكة متأرجحة.

دخل الفيلا، فوجد مساحة كبيرة أمامه، قد فُرِشَت أرضيتها برخام الجرانيت الفاخر، يغطي أجزاء صغيرة منه بعض السجاد العجمي. جدار الفيلا من الداخل ملوَّن بألوان زاهية وجميلة، يبث في النفس الراحة. في أحد الأركان وُضِعت فازة ضخمة بداخلها زرع صناعي أخضر، يظن من يراه بأنه حقيقي. تتدلى من السقف نجفة عملاقة بها كريستالات ملونة، يبدو على الفيلا أن من صنع ديكوراتها فنان محترف.

في آخر الصالون يوجد كرسيّ ضخم بظهر مرتفع جدًا، يتميز عن باقي الكراسي الموجودة، سواء في اللون أو التصميم.

كان كرسيها المفضل.

لمحها من بعيد فتقدم في خطواتٍ بطيئة مرتعشة:

«أهلاً أهلاً بالغالي ابن الغالية». رحَّبَت به بنبرة صوت واثقة، فقد كانت متأكدة من أنه سيحضر .

«طنط عزة أزيك، أنا جيت زي ماحضرتك ما .....».

قاطعته بصوت حنون يملؤه الأمومة: «خد نفَسَك بس ياحسام واقعد استريَّح، أنا عارفة إن المشوار كان طويل عليك».

«فعلًا ياطنط، أنا اتبهدلت في المواصلات و ....».

قاطعته للمرة الثانية قائلة: «معلش ياحبيبي.. بكره لما أجيبلك العربية مش هتتبهدل تاني أبدًا». قالتها وهي تراقب ردة فعله بحذرٍ.

«عربية..؟!».

* * *

- 18 -

خرجت من غرفتها وهي تتثاءب في كسل: «إيه.. ماما قاعدة كده ليه..؟».

«أخوكي راح النادي مع صحابه، وأنا خلصت الأكل من الصبح ومستنياكي تصحي».

«حسام نزل..؟ طب كويس عشان عايزاكي في موضوع مهم جدًا».

«خير يا ريم..؟».سألتها كوثر بقلق. فأجابت: «ماما أنا جالي عقد عمل برة، إيه رأيك..؟». قالتها ريم دون مقدمات.

«برة..؟! إنتي اتجننتي ولا إيه..؟». صاحت فيها كوثر.

«إيه المشكلة بس يا ماما..؟».

«معندناش بنات تسافر لوحدها».

«خلاص يا ماما تعالي معايا».

«أجي معاكي فين..؟ وأخوكي..؟ وبعدين تعالي هنا متعملي إيه في دراستك...؟».

«يا ماما.. أنا خلاص قرّبت أخلص امتحاناتي كمان كام يوم، ودي آخر سنة، هخلص الامتحانات واستنى النتيجة، ونسافر على طول. ولو على حسام، ممكن تسفّريه عند عمي في أسيوط لحد ما نرجع».

«بس يابت بطّلي هبل، ومتتكلميش في الموضوع ده تاني».

«يا ماما دي فرصة العمر، المرتب كبير أوي، خلينا بقى نعيش حياتنا زي ما الناس عايشة، انتي عجباكي عيشتنا دي..؟ ولا الكام ملطوش بتوع معاش بابا الله يرحمه إللي بتروحي تقبضيهم كل أول شهر ويقضونا بالعافية..؟».

«الكام ملطوش دول هما إللي خلوكي بنى آدمة انتي وأخوكي، ولولاهم كنا زمانّا اتحوجنا للي يسوى وإللي ميسواش. الله يرحمك يا إبراهيم ويسترك في أخرتك زي مانت ساترنا في دنيتنا».

«ماشي يا ماما.. ربنا يخليكي لينا ويرحم بابا، بس دي فرصة العمر». قالتها بشبه ترجي وتوسل.

«ريم.. لو مسكتيش دلوقتي حالًا هقلب عليكي قالبة سودا، وانتي عارفاني لما اقلب».

«يووووه يا ماما بقى..!».

* * *

"أيوة عربية. انت أقل من اللي بيركبوا عربيات ولّا إيه..؟».

«لأ.. بس أقصد يعني حضرتك متجبيلي العربية بمناسبة إيه..؟ ده غير إني لسه صغير».

«الصغير مسيره يكبر، وطول مانت بتربّحني وتسمع كلامي؛ هجبلك كل اللي نفسك فيه من غير أي مناسبة».

قالت هذه الجملة متفحصة وجهه بعناية شديدة، في انتظار أن تسمع ما يريح قلبها.

لم يرد..

«إيه.. انت مش هتسمع كلام طنط عزة ولا إيه..؟».

«لا طبعًا هاسمع كلامك».

«أيوة كده.. برافو عليك».

* * *

دخل عليها الغرفة وهي تضع الرتوش الأخيرة للمكياج، وقد ارتدت ذلك الفستان الأسود الذي اختاره لها من ضمن عشرات الفساتين، التي قد اشتراها لها ومازال. فهو يشتري لها أغلى وأجمل الفساتين والأحذية وشنط اليد والإكسسوارات، أما مها فقبل الزواج منه كانت ترتدي حجابًا ولكن ليس بالمعنى المفهوم للحجاب، فكان حجابًا صغيرًا تربطه من الخلف، يُظهر من شعرها أكثر ما يخفي، لكنه أقنعها أن الحجاب ليس بفريضة، وقد بذل مجهودًا ليس بهين؛ ليُحضر لها: كل النصوص القرآنية، والأحاديث، وآراء العلماء التي تحمل أكثر من معنى لذوي النفوس الضعيفة؛ حتى اقتنعت ووافقت على التخلي عنه، أو ربما كانت تريد من يحمل وزرها عنها. وعندما كان يبتاع لها الفساتين والملابس كان يتعمد أن تكون ملفتة للنظر ومثيرة.

نظرت إليه في المرآة بلا مبالاة، عندما دخل الغرفة. كانت تضع المكياج كمومياء تحاول أن تتحايل على الحياة؛ لتعود إليها، فلا هي تزينت ولا هي عادت إلى الحياة، رغم جمالها، إلا أن الألوان كانت باردة لا حياة فيها، تضعها بلا حماس، بلا فرحة.

«أووووف إيه الجمال ده..!». قالها كريم وهو منتشٍ لشياكتها وجمالها، نظرت إليه ممتعضة، ثم استكملت طلاء أحمر الشفاه.

«إيه الجميل ماله..؟ مش مبسوطة إننا هنخرج ولا إيه..؟».

«لو انا وانت لوحدنا يا كريم هكون في قمة سعادتي». ثم استطردت حديثها بحزنٍ واضحٍ على صوتها: «لكن مش فاهمة يعني إيه أخرج مع صحابك الرجالة ومافيش ولا واحدة من زوجاتهم معانا..؟».

«مين قال كده..؟ النهارده كل واحد هيجيب مراته معاه، ها مبسوطة كده..؟».

«بجد ياكريم..؟ ياااااه ريحتني طمّنت قلبي والله».

هرولت إليه وحضنته، ثم نظرت إلى عينيه مباشرة وهي تقول: «أصل ببقى مش مرتاحة، ومش على طبيعتي وأنا الست الوحيدة في الخروجة يا كيمو».

«لأ يا قلب كيمو، ارتاحي يا حبيبتي، هو انا ليا حد غيرك أفرَّحه وابسطه..؟».

- 21 -

دخلا سويًا المطعم وهي في كامل أناقتها، ترتدي فستانًا طويلًا أسود شديد الضيق، مفتوحًا من الجانبين حتى أعلى الركبة، وفتحة صدر واسعة، وعُقدًا أبيض من اللؤلؤ، تتدلى أكبر حبَّاته بين نهديها، فزادهما جمالًا وإغراءً.

رأت من بعيد منضدة كبيرة يلتف حولها بعض الأشخاص لم تستطيع أن تحدد ملامحهم، ولكن لفت انتباهها شخصٌ يلوح لهما بيده.

«أهو معتز بيشاورلنا، تعالي ياحبيبتي من هنا». قالها كريم وهو يمسك يدها برفق، ويفسح لها الطريق لتعبر أمامه.

«ايييه ياعم كريم.. اتأخرت كده ليه..؟».سأله معتز، فأجابه كريم: «ما انت عارف يا سيدي الستات لما تخرج بيعطلوا الواحد أد إيه..؟».

نظرت إليه معاتبة، عندما وجدت المكان خاليًا من زوجات أصدقائه، فجلست وهي تبتسم لهم ابتسامة صفراء، ممزوجة بخيبة أمل في زوجها.

«ازيك يامها.. ازيك يامها..ازيك يامها.. ازيك يامها».

كادت أن تصرخ صرخة عالية، تهز أرجاء المكان، وتسد أذنها عنهم، ولكنها كظمت غيظها وردت عليهم بكل برودٍ: «الحمد لله، كويسة».

نظر إليها معتز نظرة ذئب يستعد للانقضاض على فريسته، وسألها وهو يتفحَّص نهديها اللذين كادا أن يُعلنا حالة من العصيان المدني، مطالبين توسيع فتحة الفستان لتمنحهما الحرية والاستقلال: «إيه يا مها.. انتي بتتقلي علينا ولا إيه..؟ فينك من آخر مرة شوفناكي فيها..؟».

تذكرت فورًا تلميحاته السابقة لها برغبته الواضحة، أن يقيم معها علاقة أيًا كان كنه هذه العلاقة: جنسية كانت، أو عاطفية. المهم أن هناك تلميحات منه غير مريحة ومتكررة، لم تفهم معناها بعد.

«معلش يامعتز.. الشغل واخدني شوية انت عارف شغلي صعب قد إيه..؟».

قاطعها عماد على الفور: «شغل إيه يا مها.. الست ملهاش غير بيتها وراجلها هاهاها».

نظرت إليه نظرة استحقار والتفتت إلى كريم لترى ردود أفعاله، كان مبتسمًا، منتشيًا، سعيدًا.

قالت له بصوتٍ متحشرج، وكأنها ستبدأ في وصلة بكاء: «إيه يا كريم.. أومال فين ......».

لم يدعها تستكمل جملتها كان يعلم جيدًا أنها ستقول أين زوجات أصدقائك.

«حالًا ياحبيبتي.. هطلبك العصير إللي بتحبيه».

«جرسووووون».

- 22 -

بعد أحاديثٍ كثيرة دارت بينهم، أوهم الجالسين أن مكالمة هامة قد وردت إليه: فنهض من على المنضدة ووقف بعيدًا عنهم بقليل، بحيث يستطيع مراقبة تصرفاتهم عن كثب.

بينما انشغل عماد ومحمد بحوارٍ جانبي، بعد أن نهض وليد مستأذنًا ليدخل الحمَّام.

شعرت بحنق لانفراد معتز بها وتعمُّد بُعد كريم عنها. فقد فهمت ذلك بسهولة، بدأت تتأفف وتلتفت يمينًا ويسارًا.أما معتز فلم يستطيع منع نظراته لها، فكاد أن يفترس كل قطعه في جسدها المُفعم بالأنوثة الطاغية، بنظراته الشهوانية الجريئة:

«كلّمتك من يومين يا مها على التليفون، مردتيش عليا ليه..؟». قال هذه الجملة وعيناه مازالتا مثبتتين على نهديها.

«مأخدتش بالي». أجابته بلا مبالاة.

« مها.. أنا عايز أقولك على حاجة من أول مرة شُفتك، ومتردد».

«خير يامعتز..؟». قالتها بتحفُّز، وكأنها تعطيه الفرصة أن يتراجع .

خبط وليد بكلتا يديه على المنضدة بقوة، بعد أن جاء من الحمّام متسللًا إليهما، قاصدًا إفزاعهما على سبيل المزاح: «بتقولوا إيبيبه يا خلابيص..؟».

سألهما وليد، فانتفض معتز فزعًا، وأجاب: «يلعن أبو هزارك يا أخي».

«إيه يا قطة..! اتخضيتي..؟!». قالها وليد ضاحكًا.

«أه وقطعت الخلف كمان يا خفة».

نظرت مها لوليد نظرة شكر وامتنان، فهو لم يدرِ أنه قد جاء في الوقت المناسب تمامًا

* * *

«مش عارفه أخوكي اتأخر كده ليه، دي الساعة داخلة على 9 وهو لسه مجاش، يارب استر يارب». قالتها كوثر وهي في قمة توتُّرها. فقلما يتأخر حسام لهذا الوقت خارج البيت.

«إيه يا ماما..! هيكون جراله إيه يعني..؟!».

«نفسي أعرف وارثة قلبك الجامد ده من مين..!».

«يا ماما لو ميقاش قلبنا جامد؛ هنتّاكل من الدبابة إللي احنا عايشين معاهم».

قاطع دقات جرس الباب المتتالية كلامهما؛ فهرولت كوثر على الباب قائلة: «ده أكيد حسام».

فتحت الباب لتفاجأ به مصفر الوجه، زائغ العينين: «مالك ياحسام..؟».

«مافيش ياماما لعبت كورة كتير النهارده ومأكلتش لحد دلوقتي».

«ومأكلتش ليه، منا اديتك فلوس امبارح..؟!».

نظر إليها نظرة سخط قائلًا: «فلوس..! انتي بتسمي دي فلوس..؟ أنا خلاص عرفت يعني إيه فلوس..!». قالها وهو يسير باتجاه غرفته، ومن خلفه تسير كوثر: «وعرفتها منين وإمتى إن شاء الله..؟».

رد متلعثمًا: « إيه..! لا أصل اتعرفت النهارده على واحد جديد في النادي، من عيلة غنية أوي».

«طب ياخويا المثل بيقولك "على أد لحافك مِد رجليك". أحضّرلك الأكل..؟».

«لاااااا.. أنا أكلت أكل عمري في حياتي ما أكلته».

«ياواد انت مش لسه قايل انك ماكلتش من الصبح ..؟! حسام أنا بعرفك لما تكدب، مخبي عليا إيه..؟».

زاد اصفرار وجهه، وبدأت حبات العرق تظهر بوضوح على جبينه:

«بكدب إيه يس يا ماما..! أصل أنا نسيت أقولك إنى أكلت مع صاحبي الجديد ده من أكله اللي مامته كانت بعتاه مع الشغّالة. وجْعت تاني بعد مالعبنا كورة. أنا هدخل أنام بقى أحسن تعبان جدًا». قالها وهو يهرول على غرفته خوفًا من افتضاح أمره. لم تقتنع بكلامه أبدًا، وبدأ الشك يتسلل إلى قلبها، فهي وحدها من قامت بتربيتهما بعد وفاة والدهما صغارًا. تركته يدخل غرفته دون معارضه منها، عازمة على أن تفتّش خلفه على مايخفيه عنها.

* * *

فتح حسام باب الشرفة بعد أن بدل ملابسه، ووضع كرسيًا جلس عليه يشاهد المارة كعادته، فقد كان يقطن هو ووالدته وأخته في إحدى الدور المجاورة لعي عابدين، والتي كانت تتميز ببناء جدرانها بالحجارة، وتتميز أيضًا بعلو السقف وكثرة الغرف مع اتساع مساحتها، كما أن الشرفة كانت تطل على الشوارع العتيقة التي يفوح منها رائحة الأصالة.

حاول أن يلملم شتات نفسه، ويراجع ما حدث معه في فيلا عزة اليوم، ثم أخرج من جيبه مبلغًا من المال، ظل ينظر إليه برهة من الوقت وهو مبتسم وسعيد: فلأول مرة في حياته يمتلك مثل هذا المبلغ، نظر إلى السماء يتأمل بريق النجوم وأخذ نفسًا عميقًا.

«أخدت نفسك ياحبيبي..؟».

«أيوة ياطنط.. الحمد لله».

«قولّي بقى.. فطرت ولا كوثر نزّلتك من غير فطار..؟».

«بصراحة أنا نزلت على طول قبل ما ماما ترجع في كلامها ومترضاش تنزلني، بس اشتريت ساندوتش وأكلته وأنا ماشي».

«لاااا ساندوتش إيه..! أنا عايزاك كده تاكل كويس وتتخن وبقى عندك عضلات».

«حاضر ياطنط، بس والله أنا شبعان دلوقتي».

«خلاص ببقى تتغدا بقى غدا حلو يعوّض الفطار الهفا اللي انت فطرته ده».

وبصوتٍ عالٍ حادٍ، ودون أن تنتظر إجابة منه بالقبول أو الرفض؛ نادت: «فاااطمة».

«نعم يا مدام». أجابتها فاطمة من بعيد وهي تهرول إليها.

«عايزاكي تعملي النهارده غدا محصلش، عندنا ضيف غالي أوي، وريني شطارتك بقى».

«من عنيا يا مدام». أجابتها فاطمة مبتسمة وهي تنظر إلى حسام وتومئ برأسها له، قاصدة التحية والترحيب.

التفتت عزة إلى حسام في لهفة، بعد أن رحلت فاطمة الطبّاخة: «قولّي ياحسام انت قلت لأمك إيه وانت نازل..؟».

«قولتلها إني رايح النادي مع صحابي». سكت برهة من الوقت ثم أردف قائلًا: «أول مرة أكدب يا طنط والله..!».

«برافو عليك يا حسام انك قولتها كده، معلش يا حبيبي دي كدبة بيضا مش هتأثر».

«بُص بقى ياحسام.. من النهارده هيكون سرك معايا، محدش هيعرف حاجة أبدًا عن سرنا.. اتفقنا..؟».

«حاضر يا طنط بس سر إيه..؟».

«متسألش كتير ياحسام، كل حاجة هتعرفها في وقتها. المهم أنا عايزاك تاكل كويس وتشتري كل إللي نفسك فيه، أنا مش هخلي في نفسك حاجة أبدًا».

تهلل وجه حسام من الفرح، فأي كنزٍ هذا الذي هبط عليه من السماء، من حيث لا يدري ولا يحتسب..؟

جلسا يتسامران ويضحكان، وفي منتصف الحديث نهضت فجأة وسحبته من يديه لكي تُريه الفيلا بأكملها.كان حسام يشاهد ويراقب وهو في حالة من الاندهاش الصامت، لكل ما يراه من تحف وأنتيكات وأشياء أخرى لم يرَ مثلها من قبل، إلا في الأفلام.

الدور الأرضي عبارة عن أربع صالونات متباعدين، وغرفة طعام مستقلة واسعة، تحوي منضدة تتسع لأثني عشر كُرسيًا، و"بوفيه" ضخمًا. ودولاب يترصص به فضيات وكريستالات كثيرة. مطبخ واسع جدًا وغرفة صغيرة للشغالة، أما الطباخة فكانت تأتي نهارًا وترحل ليلًا، أيضًا كان هناك حمّام متوسط الحجم مُخصَّص للضيوف.

السلم الداخلي أرضيته مصنوعة من الجرانيت، وقد زُيّنَ حائطه بلوحات سريالية وسيعة ضخمة. مجرد أن تصعد للدور الثاني؛ تجد استراحة واسعة، وشاشة تلفاز كبيرة جدًا مثبّتة على الحائط، وثلاث غرف.. لكل منها حمّامٌ مستقل وشرفةٌ واسعة.

غرفة نومها كبيرة جدًا، أكبر الغرف الموجودة، يتوسطها سرير دائري وعلى إحدى الحوائط شاشة تلفاز أخرى بنفس حجم الموجودة بالخارج، يمين الغرفة يوجد جهاز رياضي مُخصص للسير، شمال الغرفة تسريحة ضخمة مليئة بكل أنواع العطور الفرنسية والشرقية وأدوات التجميل المستوردة، أما شرفتها فقد كانت تطل على المسبح الصغير الموجود بحديقة الفيلا، وبجانبها طقم بابمو، ويوجد بالشرفة أريكة متأرجحة كالتي توجد بجوار المسبح.

بعد أن افترشت فاطمة السفرة بكل مالذَّ وطاب من الطعام، حتى إن هناك بعض الأكلات لم يسمع عن اسمها من قبل؛ أكل حتى لإنه لم يقوَ على أخذ أنفاسه.

«شبعت يا حسام..؟».

«أوي أوي ياطنط».

«ألف هنا ياحبيبي».

أحضرت فاطمة الحلويات، وبالرغم أن معدته كانت ممتلئة عن آخرها؛ إلا إنه تحامَل على نفسه وتناول الحلويات، وكأنه يخشى من الندم على عدم تناولها، بعد أن تهضم معدته الطعام الذي تناوله.

خرجت عزة إلى الحديقة واصطحبته معها ليجلسان سويًا. مرَّ الوقت سريعًا ككل الأوقات الجميلة، ونهض حسام مُستأذنًا منها في الرحيل؛ لأن الوقت قد تأخَّر ويخشى من غضب والدته. وافقت عزة دون أي اعتراض. وقبل أن تودعه عند باب الفيلا؛ أخرجت من جيب بنطالها الجينز الضيق، مبلغًا من المال ودسته في يد حسام.

«إيه ده ياطنط..؟!». قالها حسام باندهاش، فأجابت: «فلوس يا حسام عشان تشتري إللي نفسك فيه، وكل ما تخلصهم هديك تاني».

«أيوة يا طنط.. بس ماما..!». قال بارتباكٍ، فقاطعته بحزم قائلة: «ماما إيييه بس..؟ إحنا مش قولنا إن السر إللي بينا محدش هيعرفه..؟ ولّا انت عيل ومش بتعرف تخبي سر..؟».

«حاضر ياطنط، بس دي فلوس كتير أوي..!».

«مش كتير عليك ياحسام.. أنت بس اصرفهم وأنا اديلك تاني وتالت وعاشر».

كانت هذه هي طريقتها لاستدراج فرائسها قبل أن تنقضّ عليهم، تستكشف أولًا نقاط الضعف، ثم تحدد المداخل التي تسهل عليها نصب الشباك. فأما من كان صغيرًا؛ فتنتظر عليه حتى يبلغ الحُلم، وأما من كان فقيرًا؛ فتغنيه من فضلها وتصبح له بنكًا يصرف منه بلا حساب، وأما من كان مفتقِدًا للحنان؛ كانت له كأُمٍّ حملته في رحمها تسعة أشهر، وأما من كان غريقًا؛ فتلقي له بالشباك وتمد بروحها إليه لتنتشله.

هكذا كانت البدايات، والبدايات فقط؛ حتى تتحول وتصبح هي الطرف الأقوى، ومالكة زمام الأمور في النهايات. تخترق عذريتك وحدها، ترتدي براءتك خاتمًا في إصبعها، تكون حياتك مِلكًا لها وكُلّك لها، مهما كانت قوتك؛ لن تستطيع الفرار منها أو التغلب عليها..

كانت قادرة..

والقادرات الذكيات في قوانينها؛ هن من تتمسكنَّ حتى تتمكّن.

ولكن تمكُّنها كان كإله يمسك بروح عبده، وسيد يتحكم في جسد خادمه، ليكون الطرف الآخر خلخالًا يحرّ ساجدًا أمام قدم مِلكته.

وهي لم تكن ذكية فحسب؛ بل كانت ناعمة كفرو الثعلب، متلونة كالحرباء، شرسة كالنمر. سمها قاتل كالأفعى، وحين تنفذ أوامرها تمنحك السعادة الأبدية، وتسقيك من متع الحياة أشكالًا وألوانًا، وتفتح لك أبواب السماء على مصراعيها؛ لتكون عبدًا لها، ولكن سيد الكون كله. وأما من خرج من تحت طوعها؛ فقد كفَرَ.

هكذا كان دور الرجال في حياتها، عبيدًا وخدمًا ليس إلا، ولكن مُنعَّمين تحت قدمها المقدستين، لا ينقصهم من نعيم الدنيا شيء.

وهي كانت تعلم علم اليقين وضع أسرة كوثر الاقتصادية، وأنها تصل لنهاية الشهر بالكاد، كما أنها لا تستطيع إشباع كل رغبات ريم وحسام وتوفير متطلباتهما؛ فكانا يشعران دائمًا أنهما أقل من أصدقائهما في كل شيء، فأيقنَتْ أن هذه هي أكثر نقطة ضعف تستطيع من خلالها أن تصل إلى حسام، ولو مبدئيًا حتى تجعله يعتادها فيُدمنها.

* * *

ممددة على سريرها الصغير، محتضنة تليفون المنزل الأرضي، تنتظر هذه المكالمة من الصباح الباكر وحتى هذا الوقت المتأخر من الليل.

تررررررن....

«ألو.. إزيك يا ناهد، مستنياكي من الصبح، متصلتيش ليه..؟».

«معلش ياريم كنت مشغولة أوي طول اليوم، ها قلتي لمامتك على موضوع السفر..؟».

ردت ريم ممتعضة: «أيوة قلتلها، وسمَّعتني كلام يسد النفس».

«معلش ياريم كل الأهالي بتعمل كده في الأول، لكن لما يشوفوا الفلوس بتجري في إيد ولادهم؛ بيغيرو رأيهم».

«والفلوس ياختي هتجري إزاي في إيدي وأنا مش هسافر وأشتغل».

«ومين قالك إنك مش هتسافري».

«بقولك يا بنتي ماما رافضة».

«أنا هقولك تعملي إيه».

* * *

بعد ساعتين تقريبًا من تحمُّلها كل أنواع الضغوطات؛ طلبت من كريم الانصراف لشعورها كَذِبًا بالنعاس، فوافق فورًا لسببين: أولهما.. أنه وصل إلى مبتغاه. ثانيهما.. حتى توافق بعد ذلك على أيّ تجمُّع يتفقان عليه، دون أن تتذمر أو تتحجج بأنه يُبقيها رغمًا عنها.

استأذن من الحاضرين ونهض الاثنان، فمدَّ معتز يده ليصافحها، ترددت قبل أن تمد يدها خوفًا من أي حركة مجنونة قد يقوم بها، وفعلًا حدث ما كانت تتوقعه وتخشاه. قبض على يديها بعنفٍ ثم فرك برقة ونعومة كفها، والتفَّ بحركة مسرحية قاصدًا المزاح، فانحنى لها أمام الجميع ثم قرَّب يديها من شفتيه وطبعَ عليها قُبلة.

ارتعش جسدها كله بعد هذه الحركة، وسحبت يدها سريعًا من يديه، ونظرت إلى كريم مُستنكرة الموقف، تنتظر منه أي ردة فعل، ولما خاب أملها؛ ركضت خجلًا تجاه باب المطعم، بعد أن ودَّعت الجميع بتلويحة سريعة من يديها، تعني السلام.

فتحت زجاج السيارة رغم برودة الجو، وبالرغم من فستانها المفتوح من أعلى الصدر ومن الجانبين، وكأنه شاليه تطل نوافذه على البحر من جميع الجهات؛ إلا إنها شعرت باختناقٍ كبيرٍ، وودت لو تستنشق كل نسمات الهواء التي كانت تصافح وجهها برفق.

كان ضيقها بشكل عامٍ، بسبب طباع زوجها الغريبة، وخصوصًا بعد تذكرها لنظرات معتز لها وباقي أصدقائه، وعلى وجه الخصوص المشهد الأخير الذي قام به معتز قاصدًا المزاح، ولكنها كانت تعلم جيدًا أنه لم يقصد إلا كل وقاحة، ولو أن الفرصة أتيحت له لفعل ماهو أكثر من ذلك بكثيرٍ. فمعتز دائمًا ما تفضحه نظراته وتصرفاته الجريئة، كما أنه الوحيد في أصدقاء كريم الأعزب، والمعروف عنه قصصه الغرامية وعيناه الزائغتان على كل أنواع النساء. فهو يعشقهن كما

يعشق الزرع الأخضر أن يروى بالماء كل يوم، وإلا ذَبُل ومات، بالإضافة لوسامته وشياكته التي تجذب أي امرأة له؛ رغمًا عنها.

«كانت خروجة تحفة». قالها كريم والسعادة تكاد تقفز من عينيه.

«إيه التحفة فيها..؟!». أجابته مها بضيقٍ شديدٍ.

«إنتي مشوفتيش إعجابهم بيكِ..؟».

«وانت فرحان بكده..؟».

«طبعًا..! مراتي دكتورة ومثقفة، وفوق كل ده جميلة ومحدش فهم عنده زوجة زيك، والناس كلها بتحسدني عليكِ، يبقى مفرحش ليه..؟».

«إنت مضايقتش لما معتز باس إيدي..؟!».

«ياحبيبتي دي حركة عادية بيعملها الناس الشيك، عادي يعني».

تركته مها يحدّث نفسه طوال الطريق غير منصتة، وظلت تشاهد المحلات من نافذة السيارة وهي حزينة..كريم لم يستكمل تعليمه، فقد توقف عند المرحلة الثانوية ثم امتنع عن الذهاب إلى المدرسة؛ حتى تمّ فصله منها نهائيًا. وفشل والداه في إقناعه بكل الطرق أن يستكمل تعليمه، ولم يبالِ هو بما حدث، وظل يُلح يوميًا على والده أن يصطحبه معه إلى ورشته؛ لأنه يحب العمل اليدوي. فوالده يعمل نجّارًا، وورث كريم هذه الموهبة منه، وظل يتعلم ويطوّر من نفسه إلى أن تفوق في إبداعه على والده؛ فانفصل عنه وقام بشراء جاليري يعرض فيه منحوتاته، ثم أصبح مع الوقت يمتلك ثلاث جاليريهات يدرُّون عليه دخلًا خياليًا. وبالرغم من تفوّقه في مهنته تلك، إلا إنه ظلّ يعاني من عقدة نقص طوال حياته؛ لعدم استكمال تعليمه. كانت مها تعلم بهذه العقدة وأنها تسبب له مشكلة نفسية، فهو يعشق نظرة إعجاب الناس لكل ما يقتنيه. يرتدي ملابس من ماركات عالمية، ويضع أغلى العطور. فكلما زاد إعجاب الناس به؛ زادت راحته النفسية. ولكن هل يصل الأمر إلى الاستمتاع بنظرات الرجال لزوجته..؟ لو كان هذا الإعجاب لثقافتها

وعملها؛ لكان الأمر هيّنًا ومقبولًا، لكن أن يصل إلى جسدها..؟ أي سائلٍ هذا الذي يجري في عروقه..؟ بات هذا هو سؤال مها.

بمجرد أن فتح باب الشقة؛ تبدلت نظراته لها وبدأت أعضاء جسده في التغيّر، ففهمت من أول نظرة ماذا يريد. هرولت إلى الحمّام وأغلقت خلفها الباب بإحكامٍ، وظلت تبحث في حقيبتها على ما تريد، فلم تجده، أفرغت محتويات الشنطة بالكامل على أرضية الحمّام؛ حتى وجدته. التقطت واحدة منها وابتلعتها سريعًا بقليل من ماء الصنبور، وخرجت لتُلبّي له نداءاته الجسدية. كانت تتناول أقراص منع الحمل كلما لاحظت عليه تلك العلامات، كانت ترفض أن تحمل منه. لا تعلم لمتى ستظل رافضة طفلًا من صُلبِه، ولكن كل ما تدركه الآن ألا يكون لها طفلٌ من هذا الرجل غريب الأطوار، فهي لا تعلم إلى أين سينتهي مستقبلها معه، وإلى أي مدى ستأخذها طباعه الغريبة تلك. أما هو فلم يبالِ بموضوع الإنجاب؛ بل ربما لم يفكر فيه أبدًا. احتضنها بقوة، وظل يقبّل شفتها بنهمٍ كفقيرٍ وجدَ طعامًا بعد طول جوع، ولم يسلم باقي جسدها من قبلاته الحارة، وعضّاته العنيفة، فظل جائعًا طوال اللقاء، يحاول أن يشبع ولا يستطيع. كانت تعلم أن هذه الليلة ستكون مختلفة ومميزة، فهي اعتادت على ذلك بعد رحيل أصدقائه، فأصبحت تكره اللقاء بعد رحيلهم؛ لشعورها أنه مُصطنعٌ زائفٌ، وبفعل فاعل. ظلت تردد وهي متأففة: «كفاية ياكريم.. كفاية».

ولكن دون جدوى...!

* * *

-27-

مرت الأيام وحسام يتردد على عيادة الدكتورة مها بانتظام، فتارة يكتفي بسرد أحداث عن حياته الحالية: كأعماله، ومشاريعه. وتارة يحكي لها عن ماضيه، أو مقتطفات صغيرة منه. ومرات كثيرة يكتفي بشُرب القهوة والجلوس صامتًا. أما هي فكانت تستمع وتدوّن كل كلمة يقولها بآذان صاغية، ولا تتذمر من جلساته الصامتة. بل تستقبل صمته بصدر رحب، لأنها كانت موقنة أنه لطالما بدأ بالحديث؛ فلسوف يأتي اليوم الذي يبوح بكل ما بداخله، دون خجلٍ أو خوفٍ. المهم أن هناك حاجزًا كبيرًا قد تمّ كسره بينهما.

* * *

بدأ حسام في الاعتياد على الكذب أمام والدته في كل شيء، فأوهمها أنه التحق بعمل في سوبر ماركت في الإجازة الصيفية؛ ليسد احتياجاته، أو على الأقل مصروفه الشخصي، وأخبرها أن مكان العمل بعيد نسبيًا عن المنزل؛ حتى يستطيع التأخر عند عزة كما يشاء. أما كوثر فكانت سعيدة جدًا لهذه الخطوة، فشعرت أن ابنها قد نضجَ ودخلَ في مرحلة الرجولة المبكرة، وسيكون رجلًا لهذا البيت في المستقبل القريب، خصوصًا بعد أن أعطى لها أكثر من مرة مبلغًا من المال.

أما حسام فكان يوميًا عند عزة في فيلتها بالمقطم، يذهب إليها في الصباح الباكر ويرحل في آخر اليوم، يأكل ويشرب ويمرح ويسبح بحمّام السباحة، يتعامل في الفيلا كأنها مِلكهُ، يحظى باحترام كبيرٍ من العاملين، سواء الطباخة التي كانت تعد له كل ما يتمنى من المأكولات والمشروبات والحلويات، أو الشغالة التي كانت تسير خلفه في كل مكان لتنظف كل ما يستخدمه قبل وبعد، أو البواب الذي يتعامل معه بكل احترام بعد أن تلقّى أوامره من عزة بذلك، حتى السائق الخاص بعزة كان يصطحبه إلى أي مكان يريده، كل ذلك بموافقة عزة وترحيبها الشديد، كما أنها

كانت تغدق عليه بالأموال قبل أن ينفد المبلغ الذي يملكه. أصبح جيب حسام لا يخلو من المال أبدًا، بل اعتاد على أن يصرف دون حساب.

بدأت علاقته بعزة تتوطد أكثر فأكثر، احتضنته واحتوته، وكانت ملجأه الوحيد وكاتمة أسراره. يقضي معها معظم الوقت تقريبًا، ويروي لها كل ما يحدث له في البيت أو مع أصدقائه، وتحكي له أيضًا عن كل شيء يخصها.

رأى ما لم يرَه في حياته قَط من متع الحياة، وبدأت علامات النعيم تظهر على جسده، فزاد الكثير من الكيلوغرامات. كما أن عزة أحقته بمدرسة لكمال الأجسام؛ فبرزت عضلاته وبرزت معها رغبات عزة المكبوتة.

كانت حياة حسام تسير بشكلٍ رائعٍ، حتى بدأت عزة تكشف عن نواياها رويدًا. ففي ذات الأيام اصطحبته إلى غرفتها، بعد أن أمرت الطباخة والشغالة بالرحيل. دخلا سويًا الغرفة وجلست على طرف السرير وهي تنظر إليه، تتفحص جسده وعضلاته محاول تهدئة نفسها، فلم تستطع. طلبت منه أن يحضر لها من فوق دولابها كرباجًا سودانيًا، كانت قد اشترته من فترة كبيرة، ومازالت محتفظه به، ثم طلبت منه أن يخلع ثيابه وعندما، استغرب طلبها أقنعته أنها تريد التأكد من قوة بنيانه، وأنه سيتحمل الكرباج، وأن صاحب مدرسة كمال الأجسام التي تدفع أموالًا فيها، لا ينصب عليها ولا يخدعها. خلع ثيابه فورًا دون تردد لسببين: أولهما.. لأنه كان يخشى من غضبها إذا رفض لها طلبًا، فهي كانت سريعة الغضب. ثانيهما.. لأنه اعتبر طلبها هذا تحديًا له في رجولته، فإذا رفض: ظهر أمامها بالضعف والوهن.

وبالفعل وقف أمامها يستعرض جسده العاري، إلا من" شورت" قصير ظل محتفظًا بارتدائه، ثم قام بحركات استعراضية لعضلاته، وكأنه بطل لفيلم أكشن وهو يضحك، فقد كسرت حاجز الخوف والخجل الذي كان بينهما. بدأت الأول بضربات خفيفة على ذراعه وأكتافه وهو ينظر إليها، مبتسمًا متحديًا إياها بارزًا لها عضلاته. ثم بدأت في زيادة قوة الضربات على بطنه وصدره، وهو مازال يتحمل

ومازال يستعرض عضلات ذراعيه وبطنه، ثم اشتدت الضربات قوة؛ فبدأ في الاستغراب قليلًا وانتظر منها أن تتوقف وينتهي الأمر؛ ولكن هيهات..!

اشتد الضرب أكثر، فبدأ لأول مرة في التأوّه من الألم، فزادت أكثر على ظهره فعلى صوت تأوهه؛ فزاد جنونها وهياجها وبدأت في وصلات من الضرب المتلاحق، وهو يصرخ ويصرخ: «كفاية.. كفاية أرجوكي، آآآآآآه».

لم يعلم وقتها أنه كلما زادت تأوهاته؛ ستزداد انتشاءً وجنونًا. ربما لو كان يعلم ذلك؛ لتحامل على نفسه حتى تهدأ وتكُف عن ضربه.

بعد توسلات كثيرة منه، وبعد أن بذلت مجهودًا كبيرًا في ضربه؛ توقفت عن الضرب. خارت قواها على أقرب كرسي قابلها لاهثة بأنفاس حارقة، وهي في حالة من النشوة واللذة العارمة.

أما هو فقد ظل واقفًا أمامها، عاريًا متألمًا ومذهولًا مما حدث، لا يقوى على الحراك أو التحدث من شدة الصدمة.

بدأت بعض قطرات الدم تشق طريقها في جلده؛ لتصنع مجرى كلما قابلت قطرات أخرى من الدم على جسمه؛ اتحدت معها لتصنع خطوطًا رفيعة جدًا من الدماء، تسير في طريق واحدة.

كان كلاهما ثابتًا لا يتكلم، وكأن على رأسهما الطير.. هي في حالة لذة، وهو في حالة صدمة.

* * *

اعتادت مها أن تركن سيارتها بعيدًا عن العيادة؛ حتى تُلزم نفسها بالسير على قدميها كل يوم، خوفًا من زيادة وزنها، أو الاعتياد على الكسل، خصوصًا مع شخصية في مثل نشاطها. وبالفعل بعد انتهاء عملها في العيادة، ترجَّلت حتى سيارتها، وما إن وضعت يدها على مقبض الباب لتفتحه؛ حتى فوجئت بمن يضع يده فوق يدها. انتفضت هلعًا، والتفتت سريعًا إلى هذا الشخص وما إن رأته؛ حتى هدأت نسبيًا. فهو بالنسبة لها رغم وقاحته تلك، أفضل بكثير من خروج لص أو قاطع طريق عليها في منتصف الليل: «معتز..! إنت مش هتبطل حركاتك السخيفة دي..؟!».

«أنا آسف مقصدتش أخوفك».

«ومين قال إني بخاف أصلًا..؟».

«يعني مش بتخافي مني يا مها..؟».

«ليه.. هو انت بتعضّ اليومين دول وأنا مش عارفة..؟!». سألته بنبرة حادة واثقة. فسأل مكابرًا: «انتي ليه بتعامليني كده يا مها..؟!».

« بعاملك إزاي؟».

«طب ممكن نقعد في أي مكان نتكلم شوية..؟».

«أنت عارف الساعة كام دلوقتي..؟ واقعد معاك بصفتك إيه..؟».

«أولًا مش فارقة الساعة كام، ما انتي بترجعي وِش الفجر..! ثانيًا تقعدي معايا بصفتي صديقك».

ردت مها غاضبة: «أنا بارجع وِش الفجر؛ عشان دي طبيعة عملي، مش نازلة أتفسّح. ثم مين قال إنك صديقي..؟ إنت صديق جوزي مش أكتر».

«مها.. أنا زهقت من طريقتك دي وصبري قرّب يخلص». قالها وتلافى نظرتها الحادة، ثم أردف قائلًا: «بُصّي بقى.. بالذوق بالعافية أنا هاخد منك اللي أنا عايزه». فلتت منه هذه الجملة دون قصد.

«نعم..؟! وإيه إللي أنت عايزه إن شاء الله..؟».

«يعني انتي مش فاهمة يا مها..؟».

«لأ مش فاهمة يامعتز.. عايز إيه..؟». كانت تحاول أن تظهر بالقوة التي ترجوها، إلا أنها داخليًا كانت شِبه منهارة.

«اللي بيعوزه أي راجل من أي ست».

أطلقها كرصاصة طائشة وهو يحاول أن يلمس يديها. فلم تشعر بنفسها إلا ويدها تهوى على وجهه بكل قوةٍ وعنفٍ وغيظٍ، تلقّى الصفعة على وجهه بصدمة لم يشعر بها من قبل، وضع يده على وجهه وبالتحديد على مكان الصفعة، وقال لها بنبرة وعيد: «ماشي يا مها.. وحياتك لتيجي لحد عندي راكعة على ركبك».

ركبت سيارتها سريعًا وقادتها بسرعة جنونية، لم تصدق ما حدث لها وما تفوّه به معتز بهذه الجرأة الفجة. وصلت منزلها ودخلت في حالة من الغضب والاستياء الشديدين، وكأن الشياطين ترقص أمامها لتزيد من غيظها. بحثت عنه في كل غرف المنزل، فلم تجده. جن جنونها أكثر فطلبته هاتفيًا لتجد تليفونه مغلقًا. جلست على أقرب كرسي وهي في حالة يُرثى لها، تنتظره بفارغ الصبر لتصب عليه كل غضبها، فهو السبب الأول والأخير في جرأة معتز عليها.

* * *

دخل معتز شقته بعد أن صفق الباب خلفه، كادت الجدران أن تتشقق على إثر ذلك. ألقى بمفاتيحه على المنضدة بِغِلّ، ثم جلس على الأريكة يفور الدم في عروقه، فلم يخطر بباله أبدًا أن يكون هذا ردّ فعل مها.

ربما لأنه تخيلها مثل زوجها، أو لأن ملابسها دائمًا كانت توحي بذلك، أو ربما لأنه لم يعتَد أن ترفضه أي امرأة. فهو يرى نفسه: ذلك الشاب الوسيم الذي يجذب جميع النساء إليه، بل ويتوسلن إليه ليَنلن الرضا منه.

قطع حبل أفكاره صوتٌ نسائي مبنعث من داخل غرفة نومه، يناديه بدلالٍ. عرف فورًا صاحبة الصوت، فهي واحدة من ضمن النساء اللاتي يترددن عليه في المنزل كل حين. دخل عليها ليجدها مُمددة على فراشه بقميصها الأحمر الشفاف الطويل: «حبيبي.. مستنياك بقالي كتير». قالت بغنجٍ مع إضافة بعض الحركات الأنثوية الناعمة المتعمَّدة. نظر إليها بعد أن ارتفعت حرارة جسده إلى الأربعين، وخلع قميصه بدقات قلب تهبط وترتفع. أطاح بقميصه على الأرض، وأطفأ النور وأطفأ معه ظمأها وغلّه وغيظه من مها.

* * *

- 30 -

طلبت منه أن يتصل بوالدته؛ لإخبارها أن صاحب العمل يريد منه البيات هذه الليلة في العمل، لضغط الشغل الكبير، فوافق وهو مازال في حالة الذهول التي داهمته، وجروحه المدممة تغطي جزءًا كبيرًا من جسده. بعد أن أنهى الاتصال، وبعد أن وافقت والدته وهي تدعو له بصلاح الحال والرزق الحلال؛ ذهب إليها متألمًا وقال بصوتٍ ضعيفٍ ومنخفض: «ممكن أعرف ليه عملتي كده..؟».

«عملت إيه..؟». سألته عزة بلا مبالاة، نظر إلى جسده وراح يتحسس الجروح وهو مندهش لردها مجيبًا: «حضرتك مش شايفة عملتي فيا إيه..؟».

«حسام.. هو انت مش مبسوط معايا هنا..؟ وبتعمل كل اللي انت عايزه..؟ وبتشتري إللي نفسك فيه..؟ وعشت حياة عمرك ما كنت تتخيل تعيشها..؟».

«أيوة».

«أنا استفدت إيه من ده كله..؟».

لم يجب حسام، وطأطأ رأسه خجلًا إلى الأرض، فواصلت: «حسام كل واحد فينا ليه متعة معينة، صح..؟».

«صح». أجابها ومازالت عيناه مثبتة أرضًا، فأضافت: «وانت قُلت إنك هتسمع كلامي، وهيفضل إللي بينا سر، صح..؟».

«صح».

«يبقى متتكلمش كتير وادخل الحمّام خد دش: عشان الجروح دي، وهتلاقي عندك في دولاب الحمّام مُطهّر، ابقى استخدمه». ثم أردفت آمرة إياه: «يلا خلّص وتعالى تاني».

«حاضر». أجابها كأنما قد تم تنويمه مغناطيسًا. دخل الحمام وهو يشعر أنه في كابوسٍ غريبٍ، حتى إنه قد نسى الألم من شدة ذهوله وتفكيره فيما حدث.

أعاد المشهد من جديد وهو يحاول إيجاد مبررٍ لما حدث ، هل أغضبها في شيء ما وهي الآن تعاقبه؟ ولكنها قالت إنها تستمتع بذلك، إذًا هو ليس عقاب. إذًا ماهذا الذي فعلته به ولماذا ؟

"أمجنونة هذه المرأة.. لا لا لا هي ليست مجنونة، إنني أحبها جدًا، وأعتبرها كل شيء بالنسبة لي.. أوترضى بكل ما ستفعله بك يا حسام..؟" فكّر قليلًا ثم قال لنفسه: "وما المشكلة..؟ هي تلبي لي كل رغباتي، ولم ترفض لي طلبًا قط، فلماذا أرفض لها طلباتها". "أتفعل هذا من أجل المال يا حسام، حتى ولو على حساب كرامتك..؟". عندها فقط خرج من تحت "الدش" وارتدى ملابسه ورحل دون أن يحيّها أو يخبرها برحيله .

جلس في الشُرفة كعادته يفكر ثانيًا ويعيد على نفسه السؤال "أتفعل هذا من أجل المال يا حسام، حتى ولو على حساب كرامتك..؟"

فأجاب"لا والله لم ولن أفعل هذا من أجل المال، أفعل هذا لأنني أحبها فعلًا، نعم أحبها، ليس حُبًا عاطفيًا من شاب لفتاة، ولكنه حبٌ غريب لا أعرف مسماه ولا كنهه. أحبها فقط ولا أستطيع الحياة دونها". "إذًا يا حسام تحمّل أي طلب منها بعدما رأيته اليوم، ولا تتذمر بعد ذلك". "لن أتذمر، وسأقوم بتنفيذ أي طلبٍ لها بنفس راضية تمامًا، طالما أنها سعيدة به".

عاد إليها في اليوم التالي ووقف أمامها بثغرٍ مبتسمٍ وسألها في هدوءٍ: «حضرتك مبسوطة..؟».

«إممم.. مش أوي».

«طب حضرتك تحبي أعملك إيه ياطنط عشان تبقي مبسوطة..؟!».

رفعت حاجبيها وسألته بامتعاض: «طنط..!».

«أومال أقول لحضرتك إيه يا طنط..؟ ».

«تقولّي يا هانم».

اضطرب حسام بعض الشيء، وتغيَّر لون وجهه. ثم سريعًا ما شعر أن طالما هذا سيرضيها وستكون سعيدة: فما المانع..؟ وتذكَّر العهد الذي قد أخذه على نفسه: «حاضر يا هانم، تحيي اعمل إيه كمان عشان تكوني مبسوطة..؟».

«تركع على رجلك قدامي يا حسام».

انتفض حسام من فظاظة الكلمة.. "أركع..؟!" تفكَّر في نفسه. "يا لها من ليلة سوداء مظلمة" تضاربت في لحظات قليلة كل المشاعر بداخلة."كيف أركع وقد خلقني الله، أركع وأسجد له وحده". أبت نفسه هذه المرة واستحال عليها الأمر فرحل ثانية، ولكنه غاب ثلاثة أيام لم ترَه فيهم، قرر عدم ذهابه لها مرة أخرى، في أول يوم كان سعيدًا لهذا القرار، وفي اليوم الثاني بدأ يشعر بالفقدِ هناك شيء ما ناقص في يومه، هل الطعام والمسبح والفيلا؟ فكَّر قليلًا ولكنه نفى كل ذلك، يفتقدها هي. يفتقد اهتمامها واحتواءها له. يفتقد حديثها معه، يفتقد صوتها، هناك شيء ما يفتقده فيها لا يعرف كنهه بالتحديد.

جاء اليوم الثالث وكأن بالونة تمددت عن آخرها بالهواء، ظلَّ متحيِّرًا ما يعانيه من فقدٍ طوال اليوم ولكن في المساء بدأ التفكير يعود من جديد."كيف أركع وقد خلقني الله، أركع وأسجد له وحده؟."فأجاب سريعًا. "ولكن هذا سيرضيها. المهم النية، أنا لن أركع لها كعبدٍ يركع لإله، إنما سأركع لها "إممم".. كابن يركع لأمه، أو حبيب يركع لحبيبته مثلًا. ثم إنني لن أسجد، أنا سأركع فقط". هكذا أقنع نفسه لتنفيذ هذا الطلب الغريب.

عاد في اليوم الرابع وهو مُطأطئ الرأس وبمجرد أن رأى وجهها كاد أن يركض عليها ويرمي نفسه بين ذراعيها ولكنه تماسك، وقف أمامها قليلًا ثم جثا على ركبتيه وثبت في مكانه، وبمجرد أن لمست ركبتاه الأرض: شعر بإحساس غريب لأول مرة يشعر به. شعر وكأنه مملوك لهذه السيدة ملكية تامة. برضاه ورغمًا عنه في نفس الوقت. برضاه: لأنه أصبح يعشق كل شيء فيها: حنانها، وتلبيتها لكل رغباته،

وكرمها، وشخصيتها القوية، بل ويعشق غضبها أحيانًا. ورغمًا عنه: لأنه أصبح لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، ولا يتخيل أبدًا ماذا ستفعل في غضبها بعدما رأه منها، ولا يتخيل حياته بدونها.

"يا له من شعور غريب ومريح، أن أكون مملوكًا لأحدٍ يرعاني ويهتم بي، وأرعاه وأهتم به، وأكون سر سعادته بتنفيذي لطلباته. نعم أنا سر سعادتها طالما أنني بتنفيذي لطلباتها هذه سأُدخِل السعادة إلى قلبها؛ إذًا سأكون أنا سر سعادتها".هكذا حاول أن يُقنع نفسه

سألها بخضوعٍ: «تحيي أعمل ليه كمان..؟».

نظرت إليه وقد عرفت أنه من اليوم، سيصبح خاتمًا في إصبعها، تصنع به ما يحلو لها، في الوقت الذي تختاره. فهي خبيرة بهذه الأمور، وتعرف قراءة العيون، وعينه كلها طاعة.

تهدت تنهيدة تدل على الراحة والسعادة، بأنه قد حان الوقت الذي تُشبع فيه رغباتها المكبوتة، وأن فريستها أصبحت مملوكة لها، ولن تستطيع الفرار أو المقاومة بعد اليوم. فنظراته كلها طاعة، وحب، وخوف، بل ورعب. وضعت ساقًا فوق الأخرى قائلة: «تُقدم فُروض الولاء والطاعة يا حسام، وإنك من النهارده ملك ليا انا لوحدي، ومتعمل كل اللي أأمرك بيه».

* * *

فتح عينيه؛ فوجدها مستلقية على ظهرها بجواره، يلمع جسدها مع ضوء النهار الذي يتخلل النافذة مصافحًا لجسدها الأبيض، وقميصها الأحمر ملقى على الأرض. شعر بثقلٍ على صدره وضيق غريب يعتاحه، فحاول أن يتذكر سريعًا ما حدث أمس؛ حتى عرضت ذاكرته كل المشاهد بدءًا من الصفعة إلى أن انطفأ نور الغرفة، وما حدث بعدها لهذه المسكينة الرابضة بجواره، والتي قد أفرغ بها كل شحنة غضبه.

نظر إليها؛ فوجدها ما زالت نائمة ووجنتاها تكسوهما الحُمرة. أشعل سيجارة وأخذ نفسًا، ثم وضع يده على جبهته وظلَّ يفكر، كيف يأخذ ثأره من هذه المسماة بمها. "أتصفعني على وجهي..؟ والله يا مها لأريكِ أيامًا تندمين فيها على هذه الصفعة، وتتوسلين إليَّ كي أسامحك، ولن أسامحك، فلم تتجرأ إحداهن أبدًا على أن يعلو صوتها فوق صوتي، فتأتين أنتِ يا مها وترفضينني، بل وتصفعينني..؟ يا لكِ من مغرورة غبية".

تقلبت بجواره وفتحت عينيها، ثم نظرت إليه نظرة يملؤها الرضا والحب، ابتسمت له وهي تمرر أصابعها على خده وشفتيه بعينين ناعستين، واطمأنت أنه مازال بجوارها، لفَّت ذراعيها حول جسده وراحت في نوم عميق، مرة ثانية .

بعد أن تأكد أنها نامت؛ أزاح ذراعيها عنه، وقام بهدوء. فهو رغم غروره إلا إنه كان حنونًا مع النساء، وخصوصًا اللاتي يتوددن له، ويطلبن رضاه. أما من تتعالى عليه؛ فلا يرى أمامه وقتها، ويتعامل معها بكل غِلٍ، يصل إلى الانتقام الشرس في بعض الأوقات.

وقف في الشرفة ينظر إلى السيارات المارة، محاولًا أن يهدئ نفسه، ثم التفت إليها بعد أن هاجمته فكرة شيطانية. وقال: "والله لن يأخذَ حقي من النساء إلا النساء".

* * *

قال حسام دون لحظة تردد واحدة: «أقدم لحضرتك فروض الولاء والطاعة، واني هكون ملك ليكي وانفذلك كل طلباتك؛ طالما هتسعدك وترضيكي». أضاف آخر كلمتين؛ لإقناع نفسه للمرة المئة بما يفعله.

وحتى تتأكد من ولائه أمرته أن يحضر الكرباج مرة أخرى، بخطوات ثقيلة ذهب إلى غرفة نومها ليحضره ويُفاجأ بها خلفه تأخذه منه وتعيد معه ما حدث أول مرة ولكنها كانت أشد ألمًا لحدوثها هذه المرة فوق جرحٍ مازال حيًا .

تحامل على نفسه حتى انتهى الأمر، نظرت له بابتسامة رضا وأمرته أنه يفعل ما فعله سابقًا، دخل الحمَّام وهو مازال يتساءل هل هذا الضرب المبرح سيصبح عادة يومية او كلما أتى إلى هنا؟ لماذا يتقبَّل كل هذه الآلام ؟ حينما شعر ببده تمرد نفسه مرة أخرى حتى تذكَّر سريعًا أيام الافتقاد التي مرَّ بها من قبل، تذكَّر حالته وقتها وحنينه واشتياقه لها وكيف كان حاله دونها فتحمم سريعًا وفي لحظات معدودة تبدلت آلامه بالجروح إلى شعور غريب في جسده، وكأن كل جرح بمثابة أصابع رقيقة تدغدغه.

خرج من الحمَّام وقد غسل جسده المدمم، وغسل معه عقله وكل أفكاره. خرج إنسانًا آخر/ إنسانًا لا يريد شيئًا في هذه الحياة إلا إرضاء تلك السيدة التي باتت أقرب إليه من حبل الوريد.

ومنذ هذه اللحظة أصبح لحسام حياة أخرى، مختلفة تمامًا عن سابقتها. تغيرت كل المعاني وانقلبت كل الموازين.

عاد إلى منزله وبمجرد أن رأى شقيقته حتى ظل يهزها على أتفه الأسباب ولأيام طويلة إلى أن تدخلت "كوثر" للإصلاح بينهما وأصبح من هذا اليوم قاسيًا جدًا طالما خارج حدود الفيلا وبعيدًا عن "عزة ". ويتحول بمجرد أن يراها إلى قِطة شيرازي .

* * *

- 33 -

دخل إلى الشقة وهي مازالت نائمة على نفس الكرسي الذي جلست عليه في انتظاره بالأمس. نهضت من صوت مفاتيحه واعتدلت في جلستها: فاندهش من جلستها بهذا الشكل: «إيه اللي مقعدك كده..؟».

«معتز الوقح». أجابته باكية.

« ماله..؟ جراله إيه..؟».

«جراله..! أنا اللي جرالي».

«طب بس فهميني بالراحة».

روت له كل ماحدث ليلة أمس، وهي تبكي وفي حالة مزرية، تقبّل الموضوع بهدوءٍ مستفز، وقال لها: «يا مها ده مريض، متاخديش على كلامه».

«يعني انت هتعمل إيه..؟!».

«هاكلمه».

«تكلمه..؟!». سألته باستنكارٍ شديدٍ، فأجاب ببرودٍ: «عايزاني أعمل إيه يعني..؟ كلنا بنغلط، مش هنعلّق المشانق لبعض. وبعدين ده صاحبي من زمان.. من زمان جدًا».

لفّت الدنيا بها، وشعرت بدوّارٍ جعلها تترنح بشكل لا إرادي، وقبل أن تسقط على الأرض، ودموعها الساخنة تتساقط كالأمطار من عينيها، قام بقبض يديها محاولًا إسنادها، إلا أنها أبعدت يديه عنها بقوة، وهرولت إلى غرفتها وأغلقت خلفها الباب بالمفتاح، وهي في حالة من الإعياء الشديد.

وقفت أمام المرآة تتحسس وجهها، تحاول أن تتأكد هل ما تعيشه كابوسًا أم واقعًا مؤلمًا.. ظلّ يطرق الباب عليها بهدوءٍ أولًا، ثم بعنفٍ بطرقات متتالية، إلا أنها لم

تستجب له، وبعد حوالي ساعة من التفكير؛ خرجت وقد بدلت ملابسها، ثم مسحت دموعها، مرت بجانبه وهو يجلس على كرسي في الصالة منتظرًا خروجها: «رايحة فين..؟». سألها وكأن شيئًا لم يكن، فأجابت دون أن تبالي: «نازلة».

«طب ياحبيبتي ترجعي بالسلامة».

نظرت له باحتقار وأكملت سيرها نحو الباب لتغلقه خلفها بكل عنف، حتى تناثرت المرآة الملتصقة بالباب من الخلف وافترشت الأرض.

* * *

- 34 -

حاولت عزة أن تخفي طلباتها قليلًا عن حسام، بعد آخر موقف حدث بينهما، خشية أن تفقده. فحاولت بدهائها المعهود أن تعلّقه بها أكثر وأكثر، فتارة تجن عليه وتحاول أن تلبي كل طلباته، وتارة تقسو عليه بذكاءٍ إلى أن أصبح يذوب فيها عشقًا.

وبدأ العام الدراسي الجديد، وبدأ هو في تجهيز احتياجات الدراسة، وطبعًا كل هذا كان تحت إشراف عزة. فكانت تختار له كل ملابسه وأحذيته، حتى البرفان الذي أصبح يضعه من اختيارها. أما مستلزمات الدراسة فاشترت له أغلى وأشيك الأدوات المكتبية، من أكبر مكتبة بوسط البلد، كل هذا وسط حالة من الفرح الشديد من جانبه، فهو لم يعتدْ أن يشتري مثل هذه الأشياء.

فكان قبل عهده بها يستخدم أدواته من السنة السابقة، أو أن يقوم أحد من جيرانه بإعطائه أدواته القديمة، فلم يتذوق لذة أن ينزل لشراء احتياجاته بنفسه، وأن تكون بهذه الفخامة والغلو. وبدأ في التنسيق مع عزة بين أوقات ذهابه إلى مدرسته، وأوقات الذهاب إليها، بحيث لا يهمل دراسته، وفي نفس الوقت لا يهملها. إلى أن حدثت المفاجأة الكبرى، والتي لم يتوقعها.

- 35 -

كان عائدًا من يوم دراسي كباقي الأيام، وإذا به وهو يصعد السلم يسمع صراخًا وعويلًا من داخل العمارة، وعندما ركز قليلًا في الصوت؛ وجده لأمه. ركض على السلم كالمجنون إلى أن وصل أمام باب الشقة، فوجد الجيران ملتفّين حول والدته يحاولون تهدئتها.

ظلت تصرخ إلى أن لمحته؛ حتى فقدت الوعي. وكأنها كانت تنتظره ليحمل عنها بعضًا من حزنها وقهرها. كانت تمسك في يديها ورقة فانتزعها بسرعة وأخذ يقرأ السطور التي كُتِبَت بخط يد يعرفه جيدًا.

((أمي العزيزة.. لم أستطع أن أقدر هذه الفرصة من يدي، لقد قمت بكل إجراءات السفر في الأيام السابقة دون علمك، وفي الخفاء بمساعدة صديقتي نادية، والتي سافرت معي. أرجوك سامحيني ففي فرصة العمر، ولن تتكرر مرة أخرى، قبّلي أخي حسام بالنيابة عني وادعي لي بالتوفيق)).. ابنتك ريم.

صُعق من كلماتها وركع على الأرض أمام والدته، وهي جالسة على الكرسي فاقدة للوعي، ظلّ يقبّل يديها ويحضنها والدموع تبلل جلبابها، ثم فوجئ وهو ينظر إليها، بأن شفتيها بدأت تميل كلها إلى جانب واحد، فقام سريعًا بالاتصال بعزة، فهو لم يعد يستطيع التصرف في أي شيء إلا بمشورتها ورأيها، فطلبت منه أن يتصل بالإسعاف فورًا، إلى أن تأتي لهما. وبالفعل نقلتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى، وهو ينتظر خارج غرفة العناية المركزة في حالة من البكاء والانهيار، فأخته قد سافرت إلى المجهول بدون علمهما، ودون حتى أن تودعهما، وأمه بين الحياة والموت، ولا يعلم ماذا سيكون مصيرها. ظل يسير في طرقة المستشفى أمام الغرفة التي ترقد فيها والدته ذهابًا وإيابًا، والدنيا كلها مظلمة أمامه، إلى أن لمح عزة تأتي من بعيد، فركض صوبها سريعًا كما كانت تركض هي صوبه وفي نفس سرعته، إلى أن وصل إليها فضمته إلى صدرها، وظلت تعتصره بقوة وتربت على ظهره برفق وتحاول طمأنته، غاص داخل حضنها إلى أن بدأ يشعر بالراحة والطمأنينة، فظلت تنظر إلى وجهه لتتأكد أنه بخير، ثم تعاود احتضانه مرة أخرى، ويداها تغوص في شعره الكثيف، وهي في قمة خوفها عليه.

كان حسام يروي هذا الحادث للدكتورة مها وهو متأثر، كان ينتفض من كثرة البكاء وكأن الحادث وقع الآن، حاولت مها تهدئته وطلبت له عصير ليمون، شرب العصير وبدأ يسترجع هدوءه تدريجيًا. طلبت منه أن يتوقف عن السرد وأن يكتفي بما رواه، تحدثت معه في حوارات أخرى سياسية واجتماعية، ثم تطرّقت إلى مواضيع فكاهية، وبدأ هو في الاستجابة لها رويدًا.

استأذن حسام من دكتورة مها في الانصراف، فقد بدا على وجهه الإرهاق. صافحته وربتت على ظهر يديه لطمأنته ثم ودعته بعد أن اتفقا على ميعاد الجلسة المقبلة.

لحظات ودخلت عليها سيدة عجوز ترتدي عباءة سوداء، جلست على الكرسي بمجرد الدخول إليها، تلتقط أنفاسها. انتظرت دكتورة مها حتى تهدأ وسألتها عن سبب مجيئها أو مما تشتكي. فنظرت إليها العجوز في حزنٍ وقالت لها إن حفيدها الذي ربته يعاني من أعراض غريبة. بدأت عنده منذ أسابيع. فهو يرى أناس لا تراهم هي، ويظل يتكلم معهم، أحيانا يضحك وأحيانا يبكي، وكلما أخبرته أنه لا يوجد أحد معهم بالمنزل؛ يعنفها كثيرا، ويقول لها أنها لا تعلم شيئًا، ولا ترى، ربما لأن نظرها ضعيف أو لأنها عجوز. تستيقظ في الليل على صوت عراك، وعندما تقف خلف باب غرفته؛ تسمعه وهو يصيح ويسب ولا تجد صوتًا آخر يرد عليه. تفتح الباب عليه وعندما تسأله؛ يجيبها ألا تقلق وأنه يتشاجر مشاجرة بسيطة مع أصدقائه. أحيانًا يطلب منها أن تصنع كوبين من الشاي، وعندما تسأله عن سبب صُنع كوبين وليس كوبًا واحدًا؛ يخبرها بأن صديقه يريد أن يشرب هو الآخر شايًا. كانت السيدة تروى لها وهي متأثرة بشدة من أفعال حفيدها، حاولت مها تهدئتها، وبدأت تلقي عليها بعض الأسئلة: «فين مامته وباباه..؟».

«ماتوا من زمان وهما راجعين من العمرة في السفينة إللي غرقت».

«امتى الأعراض دي ظهرت عليه بالظبط..؟».

«بقالها أسابيع».

«وقبلها كان كويس..؟».

«قبلها كان منعزل تمامًا ومش بيحب يتكلم مع حد، ياكل ويشرب ويدخل على أوضته يقفل على نفسه».

«ومدرسته..؟».

«بيغيب كتير أوي، وأحيانًا يجيلي جوابات إنذار بالفصل؛ لأنه مش بيروح، ومش عارفة بيروح فين لما يقولي إنه رايح المدرسة».

طمأنتها دكتورة مها بأن كل شيء سيكون على مايرام، وأنه يتعرّض لنوع من أنواع الفصام في الشخصية. ولكنها تريد أن تراه وتتحدث معه.

«بصراحة يا دكتورة أنا مقدرش أبدًا أقوله تعالى لدكتورة أمراض نفسية، لو ينفع حضرتك تيجي البيت وكأنك قريبتنا من بعيد وجاية تزورينا؛ تبقى عملتي فيا معروف».

«مافيش مشكلة، يوم الاتنين الجاي إن شاء الله الزيارات الخارجية، هكون عندك الساعة 12 الظهر».

سحبت ورقة من أمامها وكتبت بها عنوان المنزل ورقم تليفونها ودوّنت بعض النقاط عن شخصية الولد، ثم نهضت من المكتب وهي تخبرها بألا تقلق، خرجت السيدة العجوز وهي تردد دعوات كثيرة لها.

استدعت الساعي عبر الجرس الخاص به؛ فدخل لها مسرعًا. سألته عن عدد المرضى الموجودين بالخارج، أجابها بوجود مريضة واحدة، نظرت إلى الساعة المثبتة على الحائط، ثم تنهدت وطلبت منه أن يحضر لها فنجانًا من القهوة، وإدخال هذه المريضة الأخيرة المتبقية، وشددت عليه إبلاغ أحمد المساعد بترحيل أي مريضٍ آخر يحضر إلى الغد، انصرف الساعي وأخبر المريضة أن الدكتورة في انتظارها.

دخلت عليها سيدة متوسطة العمر، فرحبت بها ودعتها للجلوس، بدأت تروي لها مأساتها مع ابنها الذي يعاني من مرض التوحد، وأنها عرضته على أطباء متخصصين في الأمراض النفسية والعصبية؛ ولكن دون جدوى. وظلت تروي لها أعراض المرض الذي داهم ابنها، وكيف أنه يظل يصرخ ليل نهار دون توقف، حتى

بدأت أعصابها تهار. كما أنه أحيانًا يأكل فضلاته بعد أن يخرجها، وأحيانًا أخرى يأكل دهان الحائط أو قِطعًا من السجاد، وأنه لا يستجيب لأي علاج أبدًا. طمأنتها مها بأن مرض ابنها كان رسالة الدكتوراة التي قامت بمناقشتها، وأنها متخصصة في مثل هذا النوع من المرض، ووعدتها أن ابنها سيأخذ طريقه في الشفاء بجلسات، سوف تقوم بالبدء معه فيها قريبًا جدًا. فرحت السيدة جدًا وظهرت على وجهها علامة السعادة والاطمئنان، ثم صمتت قليلا وبدأت السعادة تزول من وجهها، وعندما سألتها مها عن سبب ضيقها المفاجئ : أخبرتها أن ابنها منذ وُلِدَ وهو لا يخرج أبدًا إلى الشارع، وأنه في المرتين اللتين قامت فيهما بإخراجه إلى الشارع؛ أصابته حالة من البكاء الهستيري ،إلى أن دخل في نوبة تشنجات عصبية ظلت تلازمه ثلاثة أيام متتالية، وأنها لا تستطيع أن تراه في هذا المشهد مرة ثانية، بالإضافة أن أعصابها أصبحت لا تتحمل.

فطمأنتها مها ثانية بأنها في أول ثلاث جلسات، ستكون بمنزل الصبي، إلى أن يبدأ في استجابته للعلاج؛ لتستكمل علاجه بالعيادة، وستكون أول جلسة يوم الاثنين، اليوم المخصص للزيارات الخارجية إلى المنازل، وسيكون ميعادها الساعة الرابعة. ثم سحبت ورقة أخرى وكتبت عليها عنوان المنزل، ورقم تليفون السيدة، وميعاد الجلسة، وعناوين رئيسية عن حالة الولد المرضية. فرحت السيدة جدًا وتهللت أساريرها نهضت من على الكرسي وهي تصافحها بحرارة شديدة، شكرتها على ذوقها وتعاطفها مع حالة ابنها، وكان رد دكتورة مها علها أن هذا واجبها وهذا هو شرف المهنة، وهو ألا تتأخر على أيّ مريضٍ أبدًا، فهذه رسالة الأطباء في الحياة.

غادرت السيدة العيادة بعد أن تلقت ميعادًا لأول جلسة لفلذة كبدها المريض والتي كادت أن تطير من على الأرض بعد سماعها أن ابنها سيُشفى مرضه، وسيكون مثل باقي أقرانه، وسيعيش حياة طبيعية كما تمنَّت.

أصبحت الحياة صامتة بينهما بعض الشيء، بعد موقف معتز الأخير، ورد فعله الغريب حياله. فهي تقضي نصف اليوم بالعيادة، والنصف الآخر ما بين نوم وعمل أبحاث، سواء عن طريق الإنترنت أو البحث داخل الكتب التي يكتظ منزلها بها. أما هو.. فنصف يومه أيضًا في عمله، والنصف الآخر ما بين أصدقائه وبين النوم. كان يعلم أنها غاضبة منه؛ لذلك كان يحاول أن يتجنبها وألا يحتك بها نهائيًا، حتى تهدأ وتعود إلى طبيعتها. ولكنه كان يرى أنه من غير المنطقي أن يخسر صديق عمره لمجرد أنه راودها عن نفسها، فهو يرى أن الإنسان خُلق ضعيفًا، ولا يجب أن تُعلق المشانق له.

طبعًا هذا كان مبرره لها، ولكنه داخليًا كان شديد الفرح، فها هم أصدقاؤه يتمنون زوجته، ولا يستطيعون المساس بها، فهو يعرف أخلاقها جيدًا، وهذا ما جعله يختارها من ضمن فتيات كثيرات، قد قابلهن قبل أن يقابلها. نعم هو كان يريد زوجة جميلة جدًا، ومثقفة وتمتلك متصبًا رفيعًا، وفي نفس الوقت تمتلك أخلاقًا تجعلها ترفض أي خيانة. هذه هي متعته في الحياة، أن يرى زوجته محطّ إعجاب كل من حوله، ويتمنون الوصول إليها دون جدوى.

ظلّ الوضع بينهما هكذا حتى جاء يوم الاثنين، وهو اليوم الذي حددته للسيدة العجوز، جدة الولد المصاب بالفصام، وللسيدة الأخرى والدة الطفل المصاب بمرض التوحد. استيقظت صباحًا وتناولت فطورها وهو نائم، ثم أحضرت كوبًا من النسكافيه، استيقظ وهي تشربه، حاول أن يبدأ معها أي حديثٍ، ولكنها رفضت ولم تجبه. تركها ودخل الحمَّام، ونزلت هي قبل أن يخرج. استقلت سيارتها وأخرجت أجندتها الصغيرة، لترى عنوان السيدة العجوز، ثم انطلقت إليها.

* * *

استقبلتها العجوز بترحيبٍ شديد، وأشارت بيدها إلى غرفة الضيوف لتجلس بها، دخلت مها وخلفها العجوز وجلسا سويًا. سألتها مها عن الولد أين هو ..؟ جاوبتها العجوز أنه بغرفته كالعادة، وأنه استيقظ صباحًا وأخذ فطوره إلى غرفته وأغلق الباب، كانت تسمعه وهو يتحدث مع أحدهم، ولكن دون ردٍّ من الجانب الآخر . طلبت مها أن تحضر الولد إليها، ذهبت العجوز لتحضره داعية الله أن يستجيب لها ويحضر معها. بعد دقائق عادت العجوز ومعها الولد، دخل وصافح مها، عرَّفتها العجوز للولد بأنها قريبة من بعيد، وجاءت للاطمئنان عليهما.

كانت أول جلسة دائمًا لمها، وخصوصًا في الزيارات الخارجية، تجعلها بمثابة جلسة تعارفية وإزالة أي توتر أو رهبة من قلب المريض، فكانت تفتح مواضيع عامة تتحدث بها ثم تجعل الجلسة الثانية بداية العلاج، وبالفعل بدأت تتحدث معه عن مدرسته وأخبارها وعن أصدقائه، وكان رد الولد منطقيًا جدًا ولا غبار عليه. أما هي فكانت تعلم أن بعض أنواع مرض الفصام لا تظهر أعراضه في كل الأوقات: فتوقعت أن يكون طبيعيًا في هذا الوقت فقط.

أنهت حديثها وودعته، وأخبرته أنها تريد رؤيته مراتٍ أخرى، وأخبرته أنها أحبته كثيرًا، صافحها الولد في حرارة وودعها، حتى باب الشقة.

نظرت مها إلى الساعة، فوجدتها مازالت الثانية وميعادها التالي الساعة الرابعة، فكرت في العودة إلى المنزل، ولكنها سرعان ما تذكرت كريم، وشعرت باشمئزازٍ، فهي تفضِّل أن تكون أغلب الوقت خارج المنزل، حتى لا تراه. اتجهت إلى "كافيه" قريب، وجلست تحتسي فنجانًا من القهوة؛ حتى ميعادها التالي.

* * *

كانت تجلس حزينة مهمومة، لا تدري ماذا تفعل، ولكنها كانت تشعر أن ما حدث قد حدث، ولا يوجد أدنى فرصة للتراجع: «القمر ماله، زعلان ليه..؟».

«مش عارفة ماما استقبلت الخبر إزاي يا ناهد».

«يا ستي هترَعل شوية وبعدين هتنسى».

«خايفه عليها أوي».

«متخافيش وجمدي قلبك».

«مش المفروض اتصل بيها..؟».

«لأ طبعًا.. مش دلوقتي، شوية كده لما تتقبل الوضع وتهدى».

لم تعلم ربما ما حدث لوالدتها بسببها، ربما لو علمت؛ لكانت تركت كل شيء وهرولت إلى والدتها، وارتمت في حضنها وهي تعتذر وتقبِّل رأسها، ولكن ناهد كانت دائمًا كالشيطان الذي يوسوس طوال الوقت، فلا تعطي لأحدٍ فرصة للتفكير أو حتى الندم. فناهد أصلاً متمردة على كل شيء، طموحاتها فاقت الحدود، وفاقت المنطق. كما أن أحلامها لا تلتقي أبدًا.

فبمجرد أن تحقق حلمًا: تبدأ فورًا في الحلم الذي يليه، لا تضع لأي شيءٍ اعتبارًا، سواء كان أهلها، أو العادات والتقاليد، أو الحرام. تسير كما يسير القطار، لا تنحرف يمينًا أو يسارًا؛ حتى تحقق هدفها.

* * *

- 40 -

تذكرت وهي تشرب القهوة وتتابع المارة خلف زجاج الكافيه، كريم الذي أصبحت تكره تصرفاته، وتستاء كثيرًا منها. كيف ستعيش معه بعد ذلك..؟ كيف ستنظر إلى وجهه بعد أن سقط من نظرها..؟ حاولت أن تطرد تلك الأفكار من مخيلتها ولو مؤقتًا. فأعصابها كانت لا تحتمل حتى أن تفكر فيه مجرد التفكير. فظلت تتذكر مرضاها وقصصهم؛ علَّها تهوّن على نفسها ما يحدث في حياتها، ثم تذكرت الجلسة السابقة لحسام وما رواه لها.

خرج الطبيب وأخبر عزة وحسام أن كوثر أصيبت بجلطة في المخ. شعر حسام بصدمة كبيرة، ولكن سرعان ما ضمته عزة في حضنها. طلب منهما الطبيب الحضور إلى مكتبه؛ ليتحدث معهما باستفاضة بعد أن سألته عزة عن ماهية المرض. جلس الطبيب خلف مكتبه وهو يثبت نظارته الطبية بطرف إصبعه، وأمامه جلست عزة منصتة لما يقول، وحسام الذي كان في وادٍ آخر واسترسل في الحديث من الناحية الطبية.

"الجلطة الدماغية ممكن تكون جلطة بمعنى الجلطة، يعني تكوّن كمية من الدم تجمعت وتكوّرت وقفلت على أحد الشرايين الصغيرة في الدماغ، ولما بيتم انقطاع الدم عن منطقة معينة، فده بيؤدي إلى ضعف أو عجز في الجسم، أو قد تكون الجلطة تَزْفيّة، بمعنى أنها تؤدي إلى نزيف بيتفاوت في حجمه، حسب المنطقة المعنية في الدماغ، وكمان الوعاء الدموي هل هو صغير ولا كبير. وفي أي منطقة من الدماغ..؟

«وايه مدى خطورة الجلطة الدماغية يا دكتور..؟ وهل ممكن تؤدي للوفاة لا قدر الله..؟». سألته عزة وقد بدا على وجهها القلق والتوتر. التفت إليها حسام وهو مرّعج جدًا من هذا السؤال الذي لم يأتِ على باله أبدًا.

الأشعة هي اللي بتوضح مدى خطورة الجلطة ومكانها بالتحديد، وأخطر مرحلة في الجلطات هي في الأسبوع الأول بعد الجلطة، هنا تكون الحالة حرجة بعض الشيء،

لكن بعد كده لو حصل تحسن واستقرار في الحالة، فده -إن شاء الله- من المبشرات الجيدة.

صمت لبرهة، ثم إستكمل حديثه: وممكن تكون سبب لا قدر الله للوفاة، وإذا شاء وحصل الموت هيحصل في كل الأحوال. والجلطة مش هتتكون إلا مجرد سبب من الأسباب، أخبرها الطبيب أنه يتحدث معها بمنتهى الأمانة، فهو طبيب كان يعمل بالخارج طوال حياته، وجاء إلى مؤتمر بالصدفة في مصر، وأهم ما تعلمه بالخارج أن يُخبر أهل المريض حالة المريض الصحيحة دون أي تجميل للحقائق، فقد ذهبت بها عزة إلى مستشفى كبيرة جدًا، وهذا ما لا ينساه حسام أبدًا لها، وقفت بجواره بشكل لا يُعقل ولم يكن يتخيل هذا منها أبدًا.

«طب يا دكتور.. هي محتاجة تقعد قد إيه في المستشفى..؟».

«بعض الحالات بتحتاج لأسبوعين، وبعضهم بيحتاج لشهرين أو أكثر، لكن تعتبر مدة الستة أشهر الأولى هي الفترة الحرجة والمحددة إلى مدى التقدم من عدمه». توقف قليلًا قبل أن يكمل: «فلو حصل تقدُّم في الحالة؛ فدي تعتبر بُشرى كبيرة إن أحوالها متتحسن إن شاء الله، أما لو لاقدر الله محصلش تحسن حقيقي خلال الستة أشهر الأولى من الجلطة؛ فهنا يكون احتمال التحسن المستقبلي ضعيف بعض الشيء».

نهضت عزة واصطحبت معها حسام بعد أن شكرت الطبيب، توجهت إلى غرفة العناية المركزة تحاول أن ترى كوثر من خلف الزجاج، ولكن دون جدوى. بدأت تسأل حسام عن سبب ما حدث، وعندما أخبرها بكل شيء؛ ربتت على كتفه وأخبرته أنها ستظل إلى جواره، ولن تتركه أبدًا مهما حدث. وضع رأسه على كتفها وهو يبكي، لفَّ ذراعه حول جسدها ساندًا رأسه على صدرها، شعرت هي بانتفاضة جسده من شدة البكاء؛ فاعتصرته بقوة ودمعت عيناها من التأثر بالموقف.

* * *

انتهت مها من شُرب قهوتها واتجهت إلى منزل الطفل المصاب بالتوحد، قابلتها السيدة بترحيبٍ شديدٍ وجعلتها تنتظر بغرفة الصالون، أخبرتها أن الولد صعب الطباع، وبحتاج إلى وقتٍ كبيرٍ حتى تستطيع إحضاره، تفهمت مها الوضع وأخبرتها أنها ستنتظر لحين إحضاره.

مرت نصف ساعة ولم تحضر السيدة ولا الولد، نهضت مها وفتحت باب الغرفة وخرجت ففكرت أن السيدة قد تكون تحتاج إلى المساعدة لإقناع الطفل. حين وصلت إلى صالة الشقة: كانت المفاجأة بانتظارها، لم تتوقع ما رأته أبدًا، رأت معتز يجلس على أريكة وهو ينظر إليها مبتسمًا، ظلت تحدق به للحظات دون أن تنطق بكلمة واحدة، فقد عقدت الصدمة لسانها: «إيه مالك..؟». سأل بنبرة تشفٍ، فصرخت في وجهه: «إنت إيه إللي جابك هنا..؟!».

ضحك ضحكة عالية وقال بلامبالاة: «لسبب بسيط جدًا، دي شقتي حضرتك».

نظرت حولها وظلت تلتفت يمينًا ويسارًا، فهي لا تعرف أين يسكن معتز أصلًا، فدائما كان التجمع إما في مطعم أو كافيه أو عندها بالمنزل، ولم تتخيل أبدًا أن يفعل بها هذا، هل وصلت الجرأة والحماقة إلى هذا الحد، ألم يفكر للحظة بنتيجة ما سيفعله..؟ هل كريم شخصيته مهزوزة لهذه الدرجة، حتى إن أصدقاءه لا يهابونه ولا يدرجونه في حساباتهم بالمرة هكذا..؟ هل وصلت درجة الانتقام لديه بأن يفعل بها هذا..؟

هرولت سريعًا إلى باب الشقة، وعندما حاولت فتحه لم تستطع، فقد سبق وأن أغلقه بالمفتاح: «فين مفتاح الشقة..؟». سألته وهي تحاول أن تظهر بالتماسك والثقة، ولكنها كانت من الداخل مرعوبة وشبه منهارة، ضحك ثانية وقال: «بالبساطة دي..؟! ده انتي غلبانة أوي..؟».

عاد كريم من العمل وتجول في المنزل باحثًا عنها، وعندما لم يجدها: بدأ في إجراء بعض الاتصالات التليفونية بأصدقائه، لتحديد ميعاد معهم. لم يفكر إلا في نفسه في تلك اللحظة، وكأن شخصًا آخر الذي يتصرف، وكأن شيئًا لم يحدث بينه وبين مها، وكأن شيئًا لم يحدث بين مها وبين كريم، لم يفكر كيف سيقنعها بتقبُّل الخروج ومعتز موجود معهم، لم يفكر بأي شيءٍ كان يتصرف دون تفكيرٍ أو وعي، فقد مرَّ وقت طويل دون أن يشعر بتلك المتعة التي يعشقها، كانت شهوته هي من تحركه، كانت مسيطرة على تفكيره بشكل كامل. اتصل بوليد ووافق على الفور وفوَّضه للاتصال بباقي الأصدقاء؛ للاتفاق على المقابلة يوم الجمعة القادم، وبالفعل اتصل وليد بباقي الأصدقاء، ووافقوا جميعًا إلا معتز، الوحيد الذي كان تليفونه مغلقًا، فقد كان في عالمٍ آخر مع مها.

- 43 -

جلس حسام على المكتب في شركته وأمامه الكمبيوتر، كتب إيميله الشخصي الذي لا يعرفه أحد، حيث كان باسمٍ مستعار، ثم ظلَّ يبحث في "الفيسبوك" عن كلمة "ملكة "، بدأت نتيجة البحث في الظهور سريعًا "ملكة الرومانسية"، "ملكة جمال العالم"، حذف الكلمة على الفور، فهي لم تؤتِ له بالنتائج المطلوبة، فكَّر قليلًا ثم كتب "هانم"، بلع ريقة بصعوبة وهو يقرأ النتائج "ندا هانم"، "سما هانم"، "ربري هانم" وأسماء أخرى كثيرة، نقر على أول اسم لتظهر له "ندا هانم". أول ما فعله أن قام بعمل إضافة لها، ثم تجول سريعًا على الصفحة الشخصية الخاصة بها، وجد أول بوست لها مكتوب عليه: "بدي كلب يخدمني، بدي إياه يكون مطيع". تأكد من لهجتها أنها ليست مصرية، ألغى طلب الصداقة وراح يبحث في باقي الأسماء التي ظهرت له منذ قليل: وجد "سما هانم"، وبدون تفكير دخل سريعًا يتفحص بعناية شديدة صفحتها الشخصية، وجد صورًا لسيدة تجلس على كرسي، وعلى الأرض يجلس شاب يقبِّل قدميها، تعرَّق جبينه وزادت ضربات قلبه

عندما رأى الصورة، تجول مرة أخرى في الصفحة وقد بدأت يداه في التجمُّد. وجدها كتبت "بوست" منذ أربع وعشرين ساعة: "اللي عايز يكلمني يبعتلي على الخاص كارت ب 100 جنيه، اللي مش هيبعت ميحاولش يتكلم خالص؛ لأني هعملّه بلوك".

شعر بخيبة أمل كبيرة، فقد تعرَّض كثيرًا للنصب من أمثالها، تذكر على الفور آخر حادثة وقعت له من جراء هذه الملكات المزيفات، رجع بظهره على الكرسي وتذكر...

* * *

- 44 -

«انت فاكر إنك كده بتخوفني..؟». حاولت مها بهذه الجملة أن تتغلب عليه بدراستها النفسية؛ ولكن واضح أنه كان شديد الذكاء، فقد أدرك نيتها فورًا: «انتِ هتشتغلي دكتورة عليا ولا إيه..؟ لا الشغل ده تعمليه مع المرضى بتوعك».

«ما انت مريض يا معتز».

«خلاص.. ليس على المريض حرج، واتحملي بقى اللي هعمله فيكي». قال هذه الجملة وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. بدأ التوتر يظهر على وجه مها، وفشلت في إخفائه أكثر من ذلك، خصوصًا بعد أن نهض معتز من على الأريكة وبدأت خطواته تقترب منها، وبدأت هي في التقهقر إلى الخلف بخطوات متعثرة. أما هو فمجرد أن رأى الخوف يكسو وجهها؛ حتى شعر براحة، وكأنه استرد كرامته للتوذ: «إيه خايفة..؟».

«انت مجنون، انت أكيد مش طبيعي..!».

«ما انا قولتلك.. ليس على المريض حرج». قالها وهو يصفعها على وجهها، صرخت مها من مفاجأة الصفعة ومن الألم في آنٍ واحدٍ: «ده الدين اللي كان ليا عندك».

«خلاص أخدته..؟!». قالتها مها وصوتها قد اختلط بالخوف، كمحاولة منها بأن تستدر عطفه، كانت الصدمة شديدة بالنسبة لها، وأيضًا كانت مفاجأة غير متوقعة، فتصرفاتها كانت كلها ارتجالية دون دراسة أو خطة مسبقة.

«أيوة أخدته، بس لسه مأخدتش الأهم».

أدركت مها مع هذه الجملة ما يريده معتز فورًا، فقد سبق وأخبرها بمنتهى الوقاحة أنه يريد مضاجعتها. فكرت سريعًا عندما سبق وصفعته على وجهه بعد هذا الطلب الجريء، كان رده انتقاميًا، وها هي الآن تدفع ثمن ما فعلته به. فكرت في كريم، السبب في كل ما تمر به الآن، فكرت في نشوته من إعجاب أصدقائه بها،

فكرت أنه سعيد بأخلاقها وبثق تمامًا بها وبردود أفعالها مع من يروادها عن نفسها، فكرت في حاله إذا علم بما سيفعله معتز بها، هل سيثور ويقتله مثلا..؟ ضحكت داخليًا وتخيلته وهو يقول لها أن معتز صديقه مريض، وأن الإنسان خُلِقَ ضعيفًا، هذه الجملة التي كانت كفيلة دائمًا بأن تجعلها في قمة غضبها وحزنها معًا.

* * *

خدش كارت الشحن برفق، وكتب سريعًا الأرقام السرية الموجودة به وأرسل إلى "الملكة ليلى" كارت شحن فئة ال100 جنيه، مرت لحظات شعر أنهن دهر بأكلمه: حتى وجدها تكتب شيئًا ما قبل أن ترسله، تهللت أساريره وظل منتظرًا الرسالة التي تكتبها، لحظة وجاءته الرسالة: «برافو عليك أنا بحب الخدامين اللي يسمعوا كلامي، انت اسمك إيه..؟».

طار قلبه من الفرح وكتب سريعًا: «أنا خدام حضرتك وتحت أمرك، خدامك أيمن يا هانم». كان دائمًا يتحدث باسم مستعار، خشية افتضاح أمره. لحظات مرت ثم أرسلت ثانية: «شكلك مطيع يا أيمن، لو أنا رضيت عنك؛ يبقى باب السما اتفتحلك».

كاد أن يرقص فرحًا من ردها، كتب سريعًا: «أنا مِلكك يا هانم، وأسعد يوم في حياتي؛ لما حضرتك ترضي تخليني خدَّام عندك». أرسلها ثم لم يلبث حتى أرسل: «هو ممكن اسأل حضرتك سؤال..؟».

غابت هذه المرة قليلًا؛ فبدأ في القلق، وشعر بحسرة على فرحته التي لم تدم لثوانٍ، لحظات وأرسلت له: «عايز إيه..؟». دبت الحياة مرة أخرى في جسده: «هو أنا ينفع أقابل حضرتك وأخدمك في الحقيقة، ولا حضرتك هانم على الفيسبوك بس..؟».

جاءه الرد سريعًا هذه المرة: «أنا هانم حقيقية يا.... ولو عايز تقابلني على الحقيقة؛ يبقى تبعتلي كارت شحن ب 200 جنيه، ولما أقابلك هاخد 500 جنيه».

لم يصدق ما رأه، ونهض من على سريره وظلَّ يركض في الغرفة كالمجنون، فها هو قد وجد هانم حقيقية يخدمها، بعد أن حُرِمَ من الخدمة لفترة طويلة. عاد سريعًا أمام جهاز الكمبيوتر وكتب: «أنا كلي مِلك حضرتك، أنا وفلوسي وحياتي كلها تحت رجلك».

أرسلت له عنوان المنزل وميعاد المقابلة وأغلقت الشات الخاص بها.

استعد قبل أن يذهب لها، وارتدى أفضل الثياب لديه، وظلّ يراجع الحركات وكأنه طالب يراجع ما درسه قبل الامتحان، ظلّ ينحني أمام المرآه ويركع على الأرض بركبتيه ويفكر كيف يرضيها.

ذهب بسيارته إلى العنوان الذي أرسلته، وقف أمام الباب ودقّ الجرس عدة دقات متتالية، ثم رجع إلى الخلف ينتظر من يفتح له، فتحت له خادمة وأفسحت له الطريق دون حتى أن تسأله من أنت. دخل إلى الشقة وخرج عليه رجلٌ عملاقٌ يبدو أنه "بودي جارد"، وعندما سأله عن سبب وجوده، وعندما أخبره حسام عن السبب؛ لم يشعر بأي شيءٍ وقتها إلا وهو ملقى على سلم العمارة في حالة إعياء شديدة، وآثار كدمات كثيرة على جسده، ومحفظته خاوية على عروشها، إلا من بطاقته الشخصية وبعض الأوراق الهامة التي كان يحتفظ بها.

ظلّ يبكي كالأطفال، كان يفكر ماذا يفعل، أيذهب إلى الشرطة يحرّر محضرًا، ولكن ماذا سيقول لهم..؟ هل سيخبرهم بالحقيقة..؟ فكر ثانية هل يصعد إلى الشقة ويضرب الرجل العملاق ويحطم رأسه..؟ لم يستسغ الفكرة، وهبط على درجات السلم وهو يلمس أماله المحطَّمة خلفه، ومن هذا الوقت قرر ألا يذهب إلى عناوين أبدًا عن طريق الفيسبوك، بالرغم من حالته المُلِحّة في البحث عن سيدة يخدمها، وترعاه كما كانت تفعل معه عزة. بعد أن تذكّر هذه الحادثة حذف اسم "سما هانم" من محرّك البحث، وأغمض عينيه قليلًا وهو في حالة يأسٍ وحزنٍ شديدين.

كانت عادته اليومية، البحث عبر الإنترنت عن هانم حقيقية، يخدمها ويشعر معها كما كان يشعر مع عزة، ولكنه لم يجد أبدًا ما يريد، ولكنه أيضًا لم ييأس أو يمل من البحث.

تذكّر دكتورة مها والجلسات التي بدأها معها، وظلّ يبكي كثيرًا داعيًا الله أن يشفيه وأن ينتشله مما هو فيه.

* * *

بعد لحظاتٍ من التفكير المشتت والسريع، خلعت بلوزتها ثم خلعت بنطالها، ووقفت أمامه بقطعتين من الملابس الداخلية فقط. ووقفت تستعرض جسدها أمامه كما لو كانت موديل تعرض ملابسًا للبحر: «ها عجبتك..؟ تحب تعمل فيا إيه..؟ أنا قدامك أهو». قالتها بدلال، وكأنها تتعمد إثارته. اندمش معتز من تصرفاتها، كما انتابته حالة من الغضب الداخلي، فكل مقصده فيما فعله كان ليكسر أنفها وغرورها، أما الآن فها هي تعرض جسدها أمامه بكل وقاحة وجرأة، وكأنها "مومس". قاطعت شروده وفاجأته وهي تندفع نحوه وتحتضنه بقوة، وعندما حاولت تقبيله دفعها من أمامه بحركة لا إرادية. فكان مايزال في حالة من الاندهاش مما تفعله. ألقت نفسها للمرة الثانية نحوه، وحاولت تقبيله رغمًا عنه من رقبته بطريقة مقززة، وهي تقف على أطراف أصابعها، دفعها للمرة الثانية ولكن كانت هذه المرة أشد من سابقتها، حتى إنها كادت تهوى على الأرض من شدة الدفعة، ورغم أن جسدها كان شديد الإثارة، فهي أصلا تمتلك جسدًا جميلا مثيرًا خمريًا، وزاد جماله قطعتا الملابس الداخلية التي ظلت محتفظة بهما. فكان لونهما الوردي يطبع ظِلًا ورديًا جميلًا على جسدها؛ إلا أن مشاعره كلها كانت مختلطة ومرتبكة في هذه اللحظة. شعور غضب مع شعور اشمئزاز، فهو اعتاد دائمًا أن يكون هو الصياد الذي يتربص لفريسته، حتى يصطادها ويبدأ في تناولها رغمًا عنها، وهي تتمنع وتصرخ وتحاول الفرار، ولكن أن تستخدمه الفريسة لإشباع شهوتها وافساد لحظة كسرِ أنفها عليه التي كان يحلم بها. شعر أن كل أحلامه ذهبت أدراج الرياح. جلس على الأريكة وهو ينظر لها محاولًا تفسير ما تفعله، هل تحاول أن تطبّق عليه ما درسته في النفس البشرية..؟ هل هي فعلًا محرومة من إشباع شهواتها مع كريم زوجها، ووجدت الفرصة مواتية الآن لإشباعها..؟ ولكن لو هذا صحيح لماذا رفضته مرارًا وتكرارًا من قبل، فقد كان أمامها، بل وقد كان هو

الذي يعرض نفسه عليها، ويحاول كثيرًا وبكل الطرق. ماذا تفعل هذه المجنونة..؟ أسئلة كثيرة دارت داخل رأسه، ولكن دون إجابة واحدة تشفي غليله.

قاطعت شروده للمرة الثانية بتصرفاتها الغير متوقعة، وظلت ترقص دون موسيقى. كانت تتلوى بجسدها بحركات مقززة أكثر منها مثيرة، وكأن جيشًا من الديدان صعد إلى جسدها وبدأ في التهامها وهي حيَّة.

رغم أن حركاتها كلها كانت تثير الاشمئزاز، إلا إنه بدأ يُثار فعلًا، ولعابه بدأ يسيل، وأعضاء جسده بدأت تتغير، إلا أنه تمالك نفسه. مجرد أن لاحظت هي ذلك؛ حتى هرولت نحوه وجذبته من يديه، لتجعله يرقص معها رغمًا عنه. سحب يديه من يديها بسرعة وعنفٍ وتركها ودخل غرفته. هرولت خلفه وظلت تتوسل إليه وهو جالس على "السرير" أن يضاجعها، كانت تتفوه بكل الألفاظ كما هي دون أي حياءٍ منها، ثم بدأت في البكاء مع التوسلات، كانت تتوسل وهي باكية تستحلفه بكل غالٍ عليه أن يضاجعها. كانت تنطق لفظ المضاجعة كما ينطقه أولاد الشوارع.

«آخر حاجة كنت أتخيلها إنك تطلعي كده..!». قال هذه الجملة بعد صمتٍ طويلٍ، قالها دون أن يشعر وكأنه كان يحدِّث نفسه داخليًا، ولكن بصوتٍ عالٍ. بدأت في انتزاع القطعة العلوية من ملابسها، وكأنها لم تسمع ما قاله، ازداد غضبه وهرول عليها وهو يدفعها خارج الغرفة بكل ما أوتي من قوة، حتى وصل إلى صالة الشقة، ثم التقط ملابسها من على الأرض وألقاها في وجهها وهو يقول لها: «لو انتي مش مرات صاحبي؛ كنت طردتك بشكلك ده كده، البسي لبسك وغوري من قدامي».

أخرج من جيبه مفتاح الشقة وألقاه أرضًا أمامها، في إشارة منه لأن ترتدي ملابسها وتخرج، ثم اتجه إلى غرفته، وقبل أن يغلق باب الغرفة؛ التفت إليها وأضاف: «طول عمري كنت بستكترك على كريم، لكن دلوقتي بس حسيت إنه خسارة فيكي». ثم صفق باب الغرفة خلفه بغل.

ارتدت ملابسها سريعًا وهي تبكي، لا تصدق أن خطتها قد نجحت، أسرعت باتجاه الباب ورحلت بسرعة البرق. جلست داخل السيارة وهي تبكي، والمارة في الشارع

ينظرون إليها، وكأن العالم كله قد علم بما حدث في شقة معتز. أسندت رأسها بمقود السيارة لتهرب من نظرات الناس لها، ودموعها تتساقط بغزارة من عينيها مبللة بنطالها وساقها، أصابتها الحيرة .. فهل فعلًا ما فعلته كان مجرد خطة للهروب من براثن معتز، أم أنها كانت تتعمد أن يفعل معها ما يريده؛ حتى تكسر كريم داخليًا..؟ شعرت للحظة أنها تمنت لو أن معتز ضاجعها بالفعل، ليس رغمًا عنها كما يريد، ولكن برضاها وبموافقتها؛ حتى تنتقم من كريم، حتى تلوِّث أخلاقها التي يتباهى بها أمام الناس.

اختلطت مشاعرها حينذاك فكانت تشعر بسعادة لأن معتز لم يستطع حتى أن يمسها، وأنها نجت منه وشعرت في نفس الوقت بحزنٍ؛ لأنها لم تستطع الانتقام من كريم زوجها. ظلت تضحك بصوت عالٍ وتبكي في نفس الوقت، استغربت نفسها بشِدة.. ما هذا الذي تفعله..؟ أين مبادئها وأخلاقها..؟ ولكن كلما تذكرت كريم؛ لعنت وسبَّت الأخلاق والقيم والمبادئ. انطلقت بسيارتها واتجهت صوب فندق صغير بقُربِ عيادتها، توجهت ناحية "الريسبشن" الخاص بالفندق وطلبت حجز ليلتين، لم تستطع أن تعود إلى المنزل بعد ماحدث، كما أنها لم تستطع الذهاب إلى منزل أهلها، لا تريد أن تتكلم مع أحد، لا تريد أن يسألها أحدٌ ماذا بها، كل ما كانت تحتاج له في تلك اللحظة، أن تخلو بنفسها ولو ليومٍ واحدٍ.

- 47 -

رفعت الغطاء عن الفِراش وسبحت تحته، احتضنت الوسادة وكأنها طفلة صغيرة تستجير بأمها، كانت تعتصر الوسادة بقوة، ربما لتشعر بالأمان وربما لتفرغ فيها شحنات الحزن والغضب اللاتي انتابتها، تساقطت دمعات أخرى من عينيها حتى بللت الوسادة.

رنَّ جرس الهاتف، وعندما نظرت إلى شاشته وجدته حسام، قلبت الهاتف على وجهه وظلت تتقلب على الفراش، لحظات ورنَّ الهاتف مرة أخرى، لم تبالِ هذه المرة، كانت تريد أن تهرب من كل شيء ومن كل الناس، لم يتركها الهاتف لحالها

وأصدر جرس رسالة، التقطت الهاتف ووجدت رسالة من حسام: "دكتورة مها أنا تعبان أوي".

بالرغم من كل الهموم والآلام التي كانت تحملها؛ إلا إن استغاثته بها كانت أقوى بكثير، اعتدلت في جلستها وطلبت رقمه سريعًا: «ألو.. إزيك يا أ/حسام». كان صوتها يُسمَع بالكاد، ظهرَ عليه كل ما كانت تحمله بقلبها. أجابها: «إزيك دكتورة، أقدر أقابلك النهاردة..؟ أنا تعبان جدًا».

أغمضت عينيها في أسى، كانت تريد إخباره أن لو هناك في هذا العالم شخص "تعبان": فلن يكون سواها: «إنت مش ميعادك يوم الأربعاء..؟».

«أيوه يا دكتورة مها.. بس أنا فعلا تعبان جدًا، وعايز أتكلم معاكي، أرجوكي».

كانت كلمة أرجوكي، كفيلة بأن تجعلها توافق دون تردد: «أوك يا أ/حسام، إمتى..؟».

«ممكن النهارده..؟».

«أوك».

أغلقت الهاتف واستلقت مرة أخرى على الفراش، بعد دقائق تذكرت أنها لا تريد الذهاب إلى العيادة، فهو أول مكان سيبحث عنها كريم فيه، التقطت الهاتف ثانية وأجرت اتصال: «أيوة يا أحمد إزيك».

«إزي حضرتك دكتورة مها..؟».

«عايزاك تلغي مواعيد بكره كلها، ولو كريم سأل عليا قوله إنك متعرفش حاجة عني».

«خير يا دكتورة.. في حاجة..؟».

«معلش يا أحمد، إعمل اللي بقولك عليه من غير أسئلة بعد إذنك».

«حاضر».

لوان وأجرت اتصالًا آخر، ليجيبها الرد: «خير يا دكتورة مها..؟ إوعي تكوني بتلغي الميعاد».

«لا يا أ/حسام، كنت عايزة نتقابل في مكان بره العيادة».

«مافيش مشكلة».

«تعرف كافيه أهل كايرو اللي في مصر الجديدة..؟».

«أيوة».

«نتقابل الساعة 10 هناك».

«حاضر».

مجرد أن أنهت الاتصال؛ أغلقت التليفون نهائيًا وفصلت البطارية عن الهاتف ووضعتهما بحقيبتها، نهضت لتأخذ حمّامًا ساخنًا. ثم ارتدت ملابسها فيما بعد وذهبت إلى الكافيه.

* * *

كان معتز يتجول في الشقة، وكأنه ثورٌ هائجٌ. لا يصدق ما حدث حتى سمع صوت الباب يُفتَح. التفت إليه ليراها واقفة أمامه: «شوشو.. انتي إيه اللي جابك دلوقتي..؟».

«وهو انا محتاجة وقت معين عشان آجي فيه يا معتز..؟».

«لأ.. بس انتي عارفة إن انا مع مها دلوقتي، ما كل حاجة حصلت على إيدك».

ضحكت ضحكة رقيعة ثم قالت وهي ترقص حاجبيها: «ما انا كنت تحت قاعدة في العربية يا نن عيني وشوفتها وهي نازلة، هو إيه اللي حصل..؟».

«شوشو.. سيبني دلوقتي الله يخليكي، أنا مش طايق نفسي».

«بقولك إيه يا معتز.. كل حاجة حصلت على إيدي أه، وأنا اللي جبتهالك لحد هنا آه، لكن أنا عندي مشاعر بردو، والموضوع شكله مش مجرد انتقام. أنا مدخلش دماغي الكلام إللي انت قولتهولي لما كنت عندك هنا آخر مرة، الموضوع ده في إنَّ ولازم أعرف».

شعر أن هذا الوقت ليس هو الوقت المناسب نهائيًا لشوشو، فهي شخصية زنانة ولن تهدأ حتى تعرف. أغمض عينيه وتذكر اتفاقه معها:

"شوشو حبيبتي أنا طالب منك خدمة".

"انت تؤمرني أمر يا عنيا".

"تسلم عنيكي يا حبيبتي، في واحدة أنا مخنوق منها أوي وكنت عايز اكسر مناخيرها، وعايزة تنذيني في شغلي".

"مين دي اللى تضايقك وتأذيك في شغلك؟ ده انا اجيلك رقبتها لحد عندك هنا "

"ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي، أنا قُلت كده بردو، طيب دلوقتي لازم نعمل خطة عشان نعرفي تجيبها".

"أنا من إيدك دي لإيدك دي".

جلسا سويًا يتفقان على خطة، وقام هو بدراسة أعراض مرض التوحد ثم لقَّنها هذه الأعراض: حتى حفظتها عن ظهر قلب. كتب لها كل الأسئلة المتوقعة والإجابة المنطقية لها. كان يبحث كثيرًا عبر الإنترنت، كتب لها عنوان العيادة وأخذ ميعادًا لها بالتليفون، انتظرها أسفل العيادة ليطمئن ماذا حدث، لو كان يعلم ما سيحدث لكان وفَّر مجهوده ووقته.

«إنت مش بترد عليا ليه..؟ سرحان في إيه..؟».

فتح عينيه وانتبه لوجودها، ظهرت على وجهه علامات الضيق: «شوشو لو بتحبيني بجد سيبني دلوقتي».

اقتربت منه ووضعت يديها على رأسه بدلالٍ، مسك يديها وطبع قُبلة سريعة ومصطنعة وقال لها: «مش دلوقتي يا شوشو أنا تعبان».

«ليه.. حصل حاجة بينك وبينها ولا إيه..؟».

«والله ماحصل حاجة، بس انا مخنوق ومتضايق». قال هذه الجملة وهو يهم بالخروج من باب المنزل: «أنا نازل دلوقتي، البيت بيتك طبعًا مش محتاج أقولك كده، عندي مشوار مهم ولازم أخلصه حالًا».

لم يكن لديه أي مواعيد أو مشاوير، ولكنه هرب منها ومن زنّها الدائم عليه، ربما كان يريد أن يخلي بنفسه ليعيد حساباته.

جلست متهكة وقد بدا على وجهها الإرهاق بشدة، رأته يأتي من بعيد، فتنهدت وكأن لقاءهما جبلٌ على صدرها، تريد أن ينزاح سريعًا حتى تعود إلى الفندق، وتخلد إلى نوم عميق، أو ربما إلى غيبوبة.

«أسف اتأخرت 10 دقايق غصب عني».

«ولا يهمك يا حسام، أنت عامل إيه..؟».

أشاح بوجهه عنها وقال: «تعبان يا دكتورة مها، تعبان».

«إنت اللي غلطان يا حسام، من البداية كنت طول الوقت مش عايز تتكلم، مافيش مشكلة ملهاش حل، وحتى لو ملهاش حل؛ على الأقل هتستريح لما تفضفض». وكأنها كانت تريد أن تسمع هذا الكلام من أحد، فكرت قليلًا لماذا لا تفضفض هي أيضًا مع أحد، ربما تستريح، بل ربما هي أيضًا تحتاج زيارة لدكتور أمراض نفسية: «يا دكتورة مها.. أنا حاسس إن مافيش حل لمشكلتي، أنا حاولت مع نفسي كتير ومعرفتش».

«إيه هي مشكلتك..؟ أنا معرفتهاش لحد دلوقتي». كانت تعلم مبدئيًا خطوط عريضة عن مشكلته، فبمجرد أن روى ما حدث مع عزة، وهي علمت فورًا أنها سادية، ولكنها لم تعلم ماذا حدث بعد ذلك، أو أين هي المشكلة بالضبط..؟ قلة حديثه وحرصه الشديد في البوح بما داخله؛ كان يعجزها عن التفاعل معه. قالت جملتها الأخيرة ربما لتستفزه فيتحدث باستفاضة أكثر: «مش هينفع أقولك مشكلتي إلا لما أكمل لك اللي حصل، لازم تعرفي كل حاجة عني وانتي هتعرفي المشكلة لوحدك».

«خلاص.. اعتبر النهاردة جلسة من الجلسات، واحكيلي يا حسام».

* * *

جلس معتز على ضفاف النيل يتأمل صفحته في شجنٍ، يتذكر حياته وما أنجزه فيها حتى الآن، هل فعل أي شيءٍ صحيح في حياته..؟ لا يفعل شيء سوى المتعة فقط، لماذا لا يأمن لأي امرأة..؟ هل هذا عقاب من الله على أفعاله مع النساء..؟ كم رجل خانه وطعنه في ظهره مع زوجته، أو أخته أو ابنته..؟ لماذا لم يحيا حياة طبيعية مثل أصدقائه..؟ لماذا لم يتزوج وينجب ويحيي سُنَّة الحياة في نفسه..؟ هل سيظل هكذا يسكر وينام مع النساء، وإلى متى...؟ هل هناك امرأة تستحق أن يتزوجها ويستأمنها على شرفه وعلى بيته وأبنائه..؟ أم أن الله سيقتص منه في زوجته، ويُظهِر من يخونه هو الآخر مع زوجته..؟

حتى الإنسانة التي كانت تعطيه الأمل في أن المخلصات مازلن موجودات في هذه الدنيا؛ قد حطمت آماله وخيَّبَت ظنونه هي الأخرى.

التفت بجسده إلى الشارع وظلَّ يتأمل الوجوه ويتفحصها، كان يتخيل كل امرأة في الشارع وهي على الفراش، فهذه مثلًا تتأبط ذراع زوجها ولكنها تخونه وتعاشر آخر، أما هذه تنظر إلى خطيبها وتوهمه أنها تذوب فيه عشقًا، بينما هي كل ليلة مع رجلٍ مختلف، رأى فتاة صغيرة، خمَّن أنها في المرحلة الثانوية تسير بجوار والدها، تخيَّلها وهي تهرب من المدرسة كل يوم لتذهب إلى شابٍ في بيته وتنام في حضنه طوال النهار، ثم تعود إلى بيتها بعد أن ترتدي قناع البراءة. بدأ يدخل في دوامة الشك، بدأ يرى كل النساء في الشارع مثل الشياطين، كلهن ظهر لهن قرون في رؤسهن وذيول طويلة في مؤخراتهن، وقد تبدَّل لونهن إلى الأحمر الناري. ظلَّ يفرك عينيه بشدة، فلم يتغير شيء، ظل يراهن كما رآهن منذ قليل. هبط من على السور الذي كان يجلس عليه على النيل سريعًا، واستقلَّ سيارته وطار إلى شقته هربًا من أولئك الشياطين.

* * *

- 51 -

أشعل حسام سيجارة، بعد أن طلب قهوة لنفسه وعصيرًا لمها، وبدأ يروي لها..

ذهب معها هذا اليوم إلى الفيلا، وقضى معها هذه الليلة وما يليها من ليالٍ؛ لأن المستشفى منعت وجود أي مرافق للمريضة، طالما أنها بالعناية المركزة، طلبت عزة من الشغالة تجهيز الحمَّام لحسام، وطلبت منه أن يدخل ليأخذ حمَّامه بعد أن أمرت فاطمة بتحضير العشاء، كانت تعامله برفقٍ وحنانٍ في هذا الوقت، وكأنها أمه فعلًا.

خرج من الحمَّام وتوجه نحوها مباشرة، نظر إليها نظرة تحمل كل معاني الحب والحنان والامتنان في آنٍ واحدٍ، جلس بجوارها وأمسك يديها وظل يقبِّلهما، ثم جلس على الأرض وأمسك قدمها وطبع عليها قبلة، ثم أمسك القدم الأخرى وفعل نفس الشيء، كان يعلم أنها تحب ذلك وكان يريد إسعادها. أما هي فكانت سعيدة فعلًا، فهي طوال حياتها تبحث عن الشاب أو الرجل الذي يعشقها حتى العبادة، لا تريد أن يميِّل عليها أحدٌ أو تجبر أحدًا على تقبيل قدميها، أو على احترامها وتبجيلها. كانت تبحث عن من يعاملها معاملة الملكات، وهو يريد ذلك، لذلك قدَّمت لنفسها أولًا بمعاملة حسام معاملة حسنة، واستطاعت بذكائها أن تجعله يتعلق بها ويعشقها ويتعلم كل ما يرضيها ويفعله دون أن تطلب منه ذلك، وبالفعل هو الآن كما تريد بالظبط في كل شيء.

«مش عارف من غيرك كنت هاعمل إيه..؟ أنا خدامك». قالها بعد أن طبع قبلتين على قدميها. نظرت إليه بحنانٍ وأشارت إليه بأن ينهض حتى يتناولا العشاء، أشار بيديه بأن تنتظر، ثم اتجه إلى منضدة الطعام وأحضر الصينية التي رصت عليها الأطباق بعناية، ووضعها أمامها وظلَّ يناولها الأكل في فمها بيديه، شعرت بسعادة جراء أفعاله تلك ، فقد بدأ يتعلم أشياء جديدة دون أن تخبره بها، هل تعلَّمها من أحد..؟ هل بحث ليعلم كيفية معاملة الملكات..؟ لا تعلم. لكنها كانت في قمة

سعادتها. أخذ طبقًا من الأطباق الموجودة ووضع بها بعض الطعام، جلس على الأرض بجوار قدميها مباشرة.

«مكاني وسعادتي وحياتي كلها هنا». ثم أشار على موضع قدميها وجلس يلتهم الطعام بسعادة.

نظرت إليه وهي منتشية، تشعر بلذة لم تشعر بها من قبل، أحبته كثيرًا فهو بات يفهمها من نظرة واحدة دون أن تنطق، يتحملها في أوقات غضبها دون أن يتذمر أو يستاء، يعاملها معاملة الملكات، يحترمها ويبجلها وفي نفس الوقت يعشقها ويذوب في التراب الذي تسير عليه .

مرت الأيام وهو يجلس لديها بالفيلا، في الصباح يذهبان إلى المستشفى للاطمئنان على والدته، وفي المساء يعودان إلى الفيلا؛ ليرتاحا. ولم ينسَ طبعًا أن يمارس معها كل ما تفضله من ميولٍ غريبة.. ففي إحدى المرات بعد أن عادا مساءً إلى الفيلا؛ دخل إلى غرفة نومها مباشرة، وهو يشير إليها بأنه يريدها بالداخل، استغربت من تصرفه ودخلت معه، وضع كرسيًا أمام الدولاب وصعد عليه وأحضر الكرباج وناولها إياه. استغربت أكثر من تصرفه: «ممكن تضربيني..؟».

«ليه..؟».قالتها باستغراب. فأجاب: «أنا عارف إن حضرتك بتحبي ده، وبتحسي بسعادة، وأنا عايز أسعدك».

نظرت إليه نظرة يملؤها الحب والحنان وقالت له: «حسام.. أنا مش زي ما انت متخيل، أنا لما ضربتك قبل كده؛ كنت عايزة أعرف رد فعلك هيبقى إيه..؟ كنت عايزة أعرف طاعتك ليا واصلة لحد فين..؟ وأنا عرفت خلاص». ألقت بالكرباج على الأرض، وجلست على السرير وهي تمد قدميها إلى الأمام وتنظر إليه نظرة كان يعرفها جيدًا.

هرول إليها، جلس على الأرض وانكفأ على قدميها، ظلَّ يقبِّلهما وهو مغمض العينين، وكأنه بدأ يشعر بسعادة ولذه هو الآخر من تقبيل قدميها، في هذا اليوم

لم يقبّل قدميها فقط، بل ظل يحتضنهما بشدة كما يحتضن الحبيب حبيبته. وفي هذه الليلة أصر أن ينام على الأرض بجوار سريرها، حتى تستيقظ فتجده تحت قدميها، لينفّذ أي طلب تأمره به. بات يتطبع بطباعها، فالشيء الذي يسعدها أصبح يسعده هو أيضًا، والشيء الذي يجعلها تشعر بلذة وانتشاء، أصبح يفعل معه نفس الشيء.

إلى أن حدث ما لم يتوقعه أبدًا...

- 52 -

«حسام.. الساعة بقت 12، وأنا لازم أقوم دلوقتي».

«بس أنا لسه مخلصتش». قالها بحسرة شديدة، شعرت على الفور باستيائه، وهي تعلم أيضًا أنها لن تأتي غدًا إلى العيادة. فأخبرته أنها ستنتظره غدًا في نفس المكان الساعة التاسعة، وستقضي معه وقتًا أكبر، كانت تريد بذلك أن ترضيه، فهي علمت من ملامح وجهه بخبرتها النفسية أنه الآن يمر بأصعب أوقاته، وربما لو تركته أو أهملته هذه الأيام؛ يلجأ إلى طرقٍ قد يؤذى بها نفسه، ارتاح هو لما قالته، وأخبرها أنه سينتظرها غدًا في الميعاد المحدد بفارغ الصبر. تركته وعادت هي إلى الفندق، أما هو فظلّ جالسًا وطلبَ فنجانًا من القهوة للمرة الخامسة على التوالي، منذ أن حضر إلى المكان.

- 53 -

أخذت حمّامًا ساخنًا واستلقت على الفراش، أدارت التلفاز، كان فيلمًا أجنبيًا معروضًا على إحدى القنوات الفضائية، شاهدته دون تركيز، فقد كان عقلها في وادٍ آخر، لماذا تصبر على كريم كل هذا الوقت..؟ لماذا لم تطلب منه الطلاق وتتخلص من شخصيته الغريبة التي جلبت لها الكثير من المشاكل..؟ هل لأن كل ما تمتلكه قد كتبه باسمه..؟ فالعيادة باسمه والشقة باسمه، كذلك الشاليه والسيارة.

كان يكتب كل شيء باسمه، ثم يقوم بإهدائه لها إما في عيد ميلاد، أو عيد زواج، وهي لم تبالِ أبدًا بهذا الموضوع، كانت فرحتها بهذه الأشياء أكبر بكثير من اهتمامها بكتابة تلك الأشياء باسمه.

هل تبدأ من الصفر..؟ أي صفر هذا..! فحتى الصفر هي لا تمتلكه، هل تعود إلى أهلها مرة أخرى..؟ ستعود بأي وجهٍ، وهل سيتقبلون ذلك بصدر رحب..؟ هل ستستطيع أن تمارس حياتها بشكلٍ طبيعي، لو عادت إلى أهلها..؟ هل ستستطيع العودة من عملها فجرًا كما كانت تفعل مع كريم، دون أن يتذمروا..؟ فهي وبالرغم من كل العيوب التي تلحق بشخصية كريم؛ إلا إنها تنجز عملها بجدارة، لأنه يعطيها مساحة كبيرة من الحرية، دون أن يقيّدها أو يتحكم بها. تتصرف كما تشاء دون حساب منه، نعم هذه هي الحسنة الوحيدة التي يجلبها إليها بالإضافة إلى الهدايا الكثيرة التي يجلبها إليها. شعرت أنها بين نارين..

شعور مُرعب أن تختار بين السيء والأسوأ...

نار: أن تتنازل عن كل شيء، وتخسر حياتها وما وصلت إليه. ونار: أن تظل مع هذا الشخص الذي أصبحت تكرهه وتبغضه إلى أقصى حد. وهي تفكر بكل هذا غلبها النوم من شدة الإجهاد والإرهاق، فاليوم لم يكن يومًا عاديًا أبدًا، ربما هو أصعب يوم مرَّ في حياتها على الإطلاق. راحت في النوم دون أن تطفئ حتى التلفاز، ولم تعرف متى نامت بالضبط.

- 54 -

ظلَّ حسام جالسًا في المقهى، يطلب فنجانًا من القهوة، يليه فنجانٌ آخر، ومع كل فنجانٍ كان يشعل السيجارة تلو الأخرى، متى سينتهي من هذا الكابوس الذي حلَّ به..؟ كيف سيعيش دون ملكة ترعاه وتحتويه ويرجع لها في كل كبيرة وصغيرة في حياته؟ ملكة تهتم لشئونه بعد أن بات لا يستطيع الحياة دون قيدٍ يطوق عنقه، كيف يصبح حرًّا هكذا وهو الأمر الذي لم يعتَده بعد أن دخلت عزة إلى حياته وهو صغير؟ لم يعرف إجابة لهذا السؤال.

تخيَّل عزة وهي تمرر يديها على شعره في هذا الوقت. استحالة أنها كانت ستتركه وهو بهذه الحالة. لقد افتقدها وافتقد كل شيء معها. تركته في عذابه وآلامه. ليته ذهب معها، كان دائمًا يتمنى ذلك.

تخيَّل لو عزة موجودة وهو بهذا الحال، ماذا سيكون رد فعلها.

ظهرت أمامه مرة واحدة دون سابق إنذار، وجلست أمامه: «مالك يا حسام..؟».

انتفض حسام من على مقعده، ثم مدأت جوارحه مرة واحدة بعد أن رآها: «تعبان يا ستي».

«تعبان وانا محالك..؟».

«لا مقصدش والله، انتي حياتي كلها، انتي تاج راسي اللي من غيرها مقدرش أعيش، أنا من غيرك ولا حاجة».

وجدها تنظر إليه في رضا وتقترب بمقعدها منه، تربت على ظهره في حنانٍ وتخبره بألا يخاف طالما أنها بجواره، لن يستطيع مخلوقٌ في هذه الدنيا أن يؤذيه؛ طالما هي حيَّة ترزق. سحبَ يديها التي كان تربت بها على ظهره وقبَّلها: «ربنا يخليكي ليا، وأفضل عايش لك عشان أسعدك».

«أيوة كده، عايزاك تبتسم للدنيا وتضحك، يلا بينا بقى على الفيلا». ثم غمزت له بعينيها... .

«حضرتك تحب تطلب حاجة تاني يا فندم».

قالها الجرسون وهو ينظر إلى حسام باستغراب، عندما وجده يمسك زجاجة المياه المعدنية ويقبِّلها. انتبه حسام لصوت الجرسون، وانتبه للزجاجة التي يقبِّلها فشعر بإحراجٍ كبيرٍ فأجاب متلعثمًا: «أيوة الشيك بعد إذنك».

قبل أن يصعد معتز إلى منزله، اشترى "شريحة تليفون" و"كارت شحن". وتعمد أن يشتري الشريحة بدون بطاقة رقم قومي، ثم صعد إلى منزله. وجدَ شوشو مستلقية بجسدها على الأريكة، تسحَّب بهدوءٍ حتى دخلَ غرفته وأغلق الباب دون أن تنتبه هي. جلس على السرير وأبدل سريعًا شريحة التليفون، ووضع الشريحة الجديدة، ثم قام بشحنها بكارت الشحن، خرج على أطراف أصابعه، والتقط تليفون شوشو من على المنضدة ودخل في هدوء مرة أخرى. بحث بهاتفها عن اسم زوجها، فهي كانت متزوجة وطبيعة عمل زوجها تستدعي السفر دائمًا ما بين الغردقة وشرم الشيخ، وكانت تنتهز الفرصة وتأتي إلى معتز وتبيت معه أيضًا في بعض الأوقات. وجد الاسم فنقله سريعًا إلى هاتفه، ثم حفظه باسمها وأغلق التليفون مرة أخرى، ووضعه بمكانه على المنضدة ودخلَ الغرفة لينام.

استيقظ كريم في الصباح، فلم يجد مها بجواره، نهض من على الفراش ودخل الغرفة الأخرى، فلم يجدها أيضًا. بحث عنها في الشقة كلها دون جدوى، سأل نفسه هل عادت متأخرة ونزلت صباحًا قبل أن يستيقظ أم أنها لم تعد أصلًا منذ ليلة أمس..؟

اتصل بها على الهاتف فوجده مغلقًا، اتصل بالعيادة فلم يتلقَ أيَّ ردّ. جلس يفكر قليلًا، هل يتصل بأهلها..؟ طرد الفكرة سريعًا من رأسه، فربما تكون بخير ونزلت باكرًا وهو نائم؛ فيتسبب في قلقٍ لهم دون داعٍ. تذكر بعد قليل أحمد مساعدها في العيادة، فالتقط الهاتف سريعًا: «ازيك يا أحمد».

«أهلا يا أستاذ كريم، إزي حضرتك..؟».

«هي مها في العيادة..؟». لم يفكر أبدًا في مظهره أمام أحمد. وهو يسأله عن زوجته: «مش عارف يا أستاذ كريم».

«مش عارف إزاي..؟ مش المفروض تكون في العيادة..؟».

«هي اتصلت بيا امبارح وقالت لي ألغي كل مواعيد النهارده».

«ليه..؟».

«معرفش والله يافندم».

«أوك سلام».

أغلق الهاتف وبدأ يشعر بقلقٍ شديدٍ، فالبرغم أنه لا يعلم عنها أو عن مواعيدها أي شيء؛ ولكن أن تلغي كل مواعيد العيادة، وتختفي فجأة هكذا وتغلق هاتفها، فهذا ليس أمرًا طبيعيًا بالمرة. تردد في الاتصال بأهلها، فكيف سيخبرهم أنه لا يجد زوجته، ولايعرف مكانها، حاول أن يُطمئن نفسه أنها بخير وستظهر إن آجلاً أو عاجلاً.

دخل إلى غرفته وبدَّل ملابسه، ذهب إلى الجاليري الخاص به ليباشر عمله ويتابعه، وكأن شيئًا لم يحدث.

- 57 -

فتحت عينها، فوجدت نفسها مازالت نائمة على الأريكة، وضوء الصباح بدأ يقتحم النافذة؛ لينير الصالة بأكملها، دخلت غرفته فوجدته نائمًا، جلست بجواره وهي تقوم بعمل مساج له، فتح عينيه وظل ينظر إليها ومشاعر عدة تتصارع بداخله. مازال في حالة الاستياء من أمس، مازال يرى كل النساء شياطين، حتى شوشو نفسها، وجدها تحولت إلى اللون الأحمر كالشياطين، وتنبعث من كل شبر في جسدها نار حارقة. تحامل على نفسه حتى يستطيع أن يخفي ما يشعر به، وابتسم ابتسامة صفراء لا تعني له أيَّ شيءٍ.

«صباح الفل يا حبيبي».

«صباح الخير يا شوشو».

«كده بردو تسبني نايمة على الكنبة بره من غير ما تصحيني».

«مرضتش أصحيكي يا حبيبتي عشان مقلقكيش».

«كده بردو تضيَّع علينا امبارح من غير ما...». ثم أصدرت ضحكة رقيعة وهي تضع كا[illegible]ها على فمها مُدعية الخجل.

[illegible]تي ولا يهمك، امبارح ضاع علينا لكن دلوقتي لسه مضاعش». قالها وهو [illegible]رة ظاهرها الحب وباطنها الغِلّ. نهضت من جواره بدلالٍ وهي تضحك بـ[illegible]قول له: «طيب هدخل آخد حمَّام لحد لما تصحصح».

خرجت من الحمَّام وطلبت منه أن يأخذ هو أيضًا حمامًا حتى تنتهي من إعداد الفطور.

جلس الاثنان سويًا يتناولان فطورهما، وبعد أن فرغا نهض من على المنضدة واقترب منها، طبع على وجهها قبلة وكأنه يؤدي واجبًا وطنيًا مفروضًا عليه، ثم سألها: «يلا..؟».

أجابته سريعًا: «يلا بينا».

* * *

جلست في مطعم الفندق تتناول فطورها بغير شهية، ثم أعدت لنفسها من "البوفيه" المفتوح كوبًا من النسكافيه. وظلت ترتشفه بتلذذ. فكرت هل كريم الآن يبحث عنها..؟ ماذا حضر في ذهنه عندما اكتشف غيابها..؟ هل تخيَّل أنها نزلت الصباح وستعود في المساء كعادتها، أم تخيَّل أن قد حدثَ لها مكروهٌ..؟ له أنه حدثَ لها مكروه، ماذا سيكون رد فعله..؟ هل سيحزن..؟ هل يحـ يحب جمالها وما أنعم الله به عليها من صفات ومميزات كثيرة..؟ إلى مدى ستحتفظ مختفية..؟ ماذا ستخبره عندما تعود، وماذا سيكون سبب اختفائها..؟ هل تعود بشكلٍ طبيعي وتستكمل حياتها، أم تخبره بما فعله معتزّ بها لترى ردة فعله..؟

قاطع شرودها مشهدٌ غريب، أو ربما كان غريبًا عليها هي فقط....

كان يجلس في المنضدة المجاورة لها رجل واضح من تصرفاته أنه في حالة انتظار، فهو لا يتناول فطوره بالرغم من وجوده أمامه، لحظات وحضرت فتاة من بعيد حمَّنت مها أن تكون زوجته، ثم دار هذا الحديث بينهما وكانت تسمعه بوضوح، بسبب علو صوتهما وقرب منضدتها منهما.

«بردو يا أماني لبستي الطقم ده..؟».

«خلاص بقى يا سامح عشان خاطري».

«هو إيه إللي عشان خاطري..؟ أنا قُلت الطقم ده ميتلبس يعني ميتلبس، ولّا انتي فرحانه بجسمك فيه..؟».

«بلاش الكلام اللي يضايق ده يا سامح، إنت هتزعّلني واحنا لسه في شهر العسل..؟». قالت وهي تهز رأسها، فأخفض من صوته: «هو أنا لما أغير عليكي ومحبش حد يشوف جسمك بالمنظر ده؛ يبقي بزعلك..؟».

تغيَّر فجأة وهو يتابع: «طب آه بزعلك، واتفضلي اطلعي غيّري الطقم ده حالاً».

ارتبكت الفتاة والتفتت حولها في خجل، وعندما همَّت لتنهض شدَّها من ذراعها وقال لها: «وشعرك اللي باين ده يدخل تحت الطرحة. البسي أي حاجة من تحت الطرحة عشان ميبانش».

كان هذا المشهد بمثابة اللهيب الذي لمسَ جرحًا مفتوحًا، لو كان المشهد متعمَّدًا أن يحدث في هذا الوقت بالتحديد؛ لما خرج بهذا الإتقان، شعرت بغصة في قلبها، تمنت كثيرًا أن يغار عليها كريم ولو لمرة واحدة، تمنت أن يكون سبب شجارهما في إحدى المرات، بسبب عودتها في وقتٍ متأخر، وأن يخبرها أثناء الشجار أنه يخاف عليها ويخشى أن يضايقها أو يتحرش بها أحدهم. تمنت حتى أن يصفعها على وجهها عندما يراها ترتدي فستانًا عاريًا وتريد أن تخرج به رغمًا عنه، ولكن كيف يفعل هذا وهو من يبتاع لها الفساتين المثيرة بنفسه..؟ ابتسمت بحرقة على سذاجتها، أنهت كوب النسكافيه وصعدت إلى غرفتها مرة أخرى، تراجع بعض ملفات المرضى، ربما لتهرب من واقعها وربما لتشعر أنه هناك من يعيش حياة أسوأ منها بكثير؛ فتهدأ وترتاح.

* * *

- 59 -

كان يضاجعها بغل وغضب وكأنه يعذبها عمدًا، أما هي فكانت تصرخ من فرَطِ اللذة والألم معًا، لم ترَه هكذا من قبل، ولكنها كانت سعيدة به حتى إنها لم تفكر لماذا يفعل بها ذلك. ظلّ يضاجعها بكل الأوضاع الطبيعية والغير طبيعية، حتى إنه ابتكر أوضاعًا جديدة لم يفعلها من قبل. كان جسده يتصبب عرقًا من شدة المجهود الذي يبذله، وكأنه خرج من تحت الدش لتوه دون أن يجفف جسده بالمنشفة. ربما كان هذا غضبًا وانتقامًا من كل النساء فيها، وربما لأنه كان يعلم أنها مضاجعة الوداع، فأراد أن يودّعها على طريقته الخاصة.

بعد أن وصل إلى الذروة وأفرغ شهوته أكثر من مرة، وبعد أن كانت ترتعش تحت جسده مرات عديدة، نهض وأخذ حمامًا وظلّ يدخّن حتى فرغت هي من حمّامها أيضًا.

«شوشو.. أنا مسافر بكره، عندي شغل في اسكندرية».

« هترجع إمتى يا حبيبي..؟». قالتها وقد ظهر على وجنتيها احمرار ملحوظ. فأجابها: «يمكن بعد أسبوع أو 10 أيام، على حسب ما أخلص شغلي».

«ترجع بالسلامة يا حبيبي».

ارتدت ملابسها وأخبرته أنها يجب أن ترحل حالاً، فزوجها على وشك الوصول من سفره اليوم، اصطحبها حتى باب الشقة وقبّلها قُبلة طويلة، وقبل أن ترحل قال لها: «أه صحيح يا شوشو نسيت أقولك، في واحد صاحبي هيجي يقعد هنا من بكره لحد ما أرجع، عشان عامل شوية مشاكل مع مراته، فبلاش تيجي هنا اليومين الجايين دول».

«حاضر يا قلبي، مش جاية إلا لما تقولي إنك رجعت بالسلامة، بس بلاش تتأخر عليا».

تركها ترحل ودخلَ سريعًا إلى غرفته، أخرج هاتفه من تحت الوسادة وبحث عن اسمها بالشريحة الجديدة، والذي هو في الأصل رقم زوجها، أرسل رسالة له وأخبره أن زوجته تخونه منذ فترة مع عشيقها، وأنها كانت في أحضانه صباح اليوم. وأعطاه دليل على صِدق حديثه، أشار إلى أماكن معينة في جسدها كان قد قبّلها فيها بغل: حتى حُبِسَت الدماء في هذه الأماكن وتركت لونًا أزرق. بعد أن أرسل الرسالة بدّل الشريحة ووضع شريحته وقام بإجراء اتصال بواحدة ممن كان ينام معهن: «رشا حبيبة قلبي، إزيك..؟ وحشاني مووووت».

«إزيك يا معتز..؟ انت كمان واحشني أوي يا عمري».

«عايز أشوفك، انتي وحشاني أوي وعايز أكلك أكل».

ضحكت بميوعة: «وأنا معاك وقت ما انت عايز».

«إيه رأيك تجيلي بكره البيت..؟».

«من عنيا يا حبيبي، انت تؤمر».

أغلق الهاتف ثم قام ليحضر ورقة وقلم، كتب كل أسماء من نام معهن من قبل في ورقة، ثم طواها وأخفاها تحت ملابسه بالدولاب.

* * *

- 60 -

اعتاد حسام أن يسير في الشارع فترة طويلة عندما تنتابه "الحالة"، ربما ليهدأ. فهو يهدأ كثيرًا عندما يتجول في الشوارع، وربما ليصادف ما يريده ويتمناه؛ فيرتاح.

وبالفعل وجد هذه المرة ما أراده، فعندما كان يسير بالشارع فى هذا الوقت وجد فتاة تمتلك قدمين لم يرَ من قبل في جمالهما إلا طبعًا قدميْ عزة، فهي دائمًا كانت خارج أي مقارنة أو منافسة. سار خلفها كان يريد أن يركع على ركبتيه ويقبّلهما، لقد أدمن أقدام النساء، كلما رأى قدمًا جميلة لامرأة؛ يرتعش جسده ويتعرق ويرتبك، وكأن شابًا عاديًا رأى فتاة عارية تمامًا تسير في الشارع، فلذّته ونشوته أصبحتا مختلفتين عن باقي الرجال. فالسنين الطويلة التي قضاها مع عزة، كانت كفيلة أن تغيّر طباعه وتغيّر أسباب إثارة شهوته تمامًا، فإذا كانت شهوة الرجل العادي عندما يرى فتاة جميلة، أو جسدها متناسق، أو شعرها طويل، أو ترتدى ملابس مثيرة، فكان حسام شهوته تأتي ويثار عندما يرى فتاة لديها قدم جميلة أو ترتدي خلخالًا او تمتلك شخصية قوية.

عندما يسير في الشارع لا يرفع عينيه من على الأرض، يظل يبحث بين أقدام النساء على ما يثيره. هو في الغالب أصبح يعشق كل أقدام النساء، ولكن القدمَ الجميلة الرقيقة التي تهتم صاحبتها بها، وتقلِّم أظافرها وتنعّمها بالكريمات، وتطلي الأظافر بالمانكير؛ هي التي كانت تثير شهوته. ظلّ يسير خلف الفتاة ولم يرفع عينيه من على قدميها، حتى إنه لم يرَ وجهها أو جسدها، كل ما كان يهتم به هو قدماها، فقد كانتا شديدتيْ الجمال، ترتدي فيهما صندلًا أسود، مفتوحًا من الخلف ومن الأمام أيضًا، وكان يكشف قدميها كلها تقريبًا، أما كعبيها فقد كان ناعمًا كجلد الأطفال، وأصابع قدميها كانت متناسقة جدًا، وأظافرها مطلية بلونٍ أحمر فاتح مما زاد من جمال قدميها. شعر بإثارة كبيرة، ولكن سعادته لم تكتمل حين وجدها تفتح باب سيارتها وتقودها وترحل بعيدًا، ركل طوبة من تحت قدمه بغضبٍ وعاد إلى منزله حزينًا يائسًا، ينتظر الميعاد المتّفق عليه بينه وبين دكتورة مها؛ حتى يذهب إليها.

كانت شهوته وقتها كبيرة بسبب ما رآه في الشارع ، لدرجة أنه لم يستطيع التحمل، ففتح "اللاب توب" الخاص به، ثم بحث فى جوجل الخاص بالصور عن "أقدام النساء" حتى ظهرت له مئات من الصور التي تخص أقدام النساء، شعر بحرارة تسري في جسده كله، وبدسأت الإثارة تصل لقمّتها، ظلّ يقبّل كل صور الأقدام التي ظهرت له واحدة تلو الأخرى، عبر شاشة اللاب توب، حتى هدأ تمامًا عندما أفرغ شهوته.

- 61 -

اتصل كريم بوليد ليعلم نتائج اتصاله بباقي "الشلة"، وهل وافقوا على الخروج يوم الجمعة القادمة أم لا. ردَّ عليه وليد وأخبره أنهم جميعًا وافقوا إلا معتز، فقد كان هاتفه مغلقًا طوال الوقت، شكره كريم على تعاونه وأخبره أنه سيتصل بمعتز بنفسه، فهو الآن لديه وقت فراغ ولا يفعل شيئًا في الجاليري.

أغلق الهاتف وقام بالاتصال بمعتز.

نظر معتز إلى الرقم وارتبك جدًا. هل أخبرت مها كريم بما حدث..؟ ماذا سيقول له..؟ هل يخبره أنه اختطف زوجته في شقته..؟ فكَّر قليلًا فيما حدث، هل تخبره مها بعد أن فعلت ما فعلته..؟ أكيد أنها ستخشى إخباره. قرر أن يرد عليه وليحدث ما يحدث، لو سأله كريم عن ما حدث؛ سيخبره أن زوجته "مومس"، نعم سيخبره بذلك وسيخبره بكل ما فعلته معه، بل سيخبره أنها أتت بمفردها إلى شقته لتراوده عن نفسه، ولكن عندما قرر الرد كان جرس التليفون قد توقف، لحظات وبدأ الهاتف في الرن مرة أخرى، التقطه سريعًا وفتح من أول جرس، ليأتيه صوت كريم: «ألووو، ميزو حبيب قلبي انت فين..؟».

اندهش معتز من طريقة كلام كريم، فأول ما توقعه أنه سيسبّه بأمه وأبيه وأهله أجمعين، ثم يتوعد له بأنه سينتقم منه في القريب العاجل، ولكنه لم يحدث: «ازيك يا كيمو..؟».قالها بحذرٍ شديدٍ.

«إيه يابني.. وليد كان بيكلمك كتير امبارح وسيادتك قافل تليفونك، طبعًا تلاقيك كنت بتعط مع واحدة من اياهم». ثم أصدر قهقهة طويلة، استطرد حديثه قائلًا: «بقولك إيه كلنا خارجين يوم الجمعة الجاية وانت معانا طبعًا؟».

زاد اندهاش معتز من الحديث، هل رفضت مها إخبار كريم..؟ هل وصل الأمر أن يخرجوا جميعهم أيضًا بعد ما حدث..؟ هل تعلم مها بهذه الخروجة..؟

«أكيد.. إن شاء الله يا كريم».قالها مؤقتًا حتى يرتب أفكاره ويقرر ماذا سيفعل. أغلق الهاتف وظلّ يفكر فيما يحدث..؟ هل كريم يخطط ليستدرجه وينتقم منه يوم الجمعة..؟ أم أنه فعلًا لا يعلم بما حدث..؟ قرر فورًا أنه لن يذهب يوم الجمعة، وسوف يختفي تدريجيًا من الشلة حتى يعتادوا على غيابه، متعللًا كل مرة بانشغاله، أو سفره، أو أي شيء، ثم يقطع علاقته بهم جميعًا. أصبح الآن يشك في أصابع يده، أصبح يريد العزلة عن الناس سواء كانوا رجالًا أم نساء. فالنساء أصبحن شياطينَ في نظره، والرجال لا يختلفون كثيرًا عنهن.

واضح أن ما فعلته مها؛ سيترك أثرًا لن يمحيه الزمن مهما طال.

- 62 -

جاء حسام في الميعاد المتفق عليه بالضبط، بعده بدقائق حضرت مها، تصافحا كلاهما بابتسامة ليس لها ملامح، سألته عن أخباره وأحواله. ثم طلبت نسكافيه لها وقهوة له: «دكتورة مها أنا بموت كل يوم بالبطيء». قال والحزن يملأ وجهه. تنحنحت: «محدش بيموت بسبب مشاكله يا حسام، واللا مكانش حد هيبقى عايش لحد دلوقتي». تذكرت كل مشاكلها مع الحياة بسبب زوجها، فأضافت: «كلنا عندنا مشاكل، بس الذكي اللي يقدر يتعايش مع مشاكله لو مقدرش يحلها».

«بس أنا لا قادر أحل مشكلتي، ولا اتعايش معاها حتى...».

«كمّل بس اللي حصل، ونحدد المشكلة الأول ونشوف حلها إيه». كانت دائمًا تشرك مرضاها معها في علاجهم، فتعطيهم الثقة بأنهم سوف يحلون مشاكلهم أو يتخلصون من مرضهم بأنفسهم.

أخذ نفسًا عميقًا وعاد إلى الماضي مرة أخرى...

مرت الأيام وبدأ حسام يعاود انتظامه في دراسته بعد أن خرجت والدته من العناية المركزة، وظلت بغرفة عادية بالمستشفى لفترة طويلة، ثم عادت إلى المنزل بعد أن أمر الطبيب بذلك. ولكن الجلطة قد تركت لها أثرًا في جسدها، حيث أصابها شلل بنصفها الأيمن ، فكانت تسير وهي تستند على عكاز أحيانًا، وأحيانًا أخرى تجلس على كرسيّ متحرك. أما حالتها النفسية فكانت إلى الأسوأ دائمًا، أصبحت لا تكلم أحدًا، كما أنها باتت سريعة الغضب لأي شيء، حتى لو كان تافهًا.

كانت عزة تزورهم بالمنزل كثيرًا خلال هذه الفترة، وقد كانت كوثر تحمل لها كثيرًا من الامتنان لما فعلته من أجلها. فقد صرفت أموالًا طائلة على علاجها، وعلى مكوثها بالمستشفى، فلولاها لكانت ذهبت كوثر إلى مستشفى حكومية، وربما كانت ستموت من الإهمال. أيضًا كان حسام يتردد عليها في فيلتها بين الحين والآخر، ولا ينسى طبعًا أن يلبي كل احتياجاتها عندما يزورها، ولكنه كان لا يستطيع المبيت معها؛ حتى لا يترك والدته وحدها بالمنزل، فربما تحتاج إلى شيء ولا تجد من يخدمها، فكان حسام يرى أن ما فعلته أخته كافيًا جدًا على والدته، ولن تتحمل أن تُصدَم فيه هو أيضًا، فهي الآن أصبحت قعيدة وعاجزة، وحالتها النفسية تأثرت كثيرًا لمنظرها هذا، ولما فعلته بها ابنتها التي كانت سببًا لكل ما حدث لها.

كانت عزة تستاء من عدم بيات حسام معها، ولكنها كانت تقدّر الظروف التي يمر بها، وهذا ما جعله يزداد تعلقًا بها. فلو أنها أمرته أن يبيت لكان فعل ما تريده، ولكنها قدّرت ظروفه، فكانت أحيانًا تبيت هي معهم. وبالطبع كان حسام سعيدًا جدًا لهذا، فحسام أصبح يعتبر عزة كل شيء له في الحياة، هي سنده وهي سبب سعادته وهي ملكته، بل كان يعتبرها تاج رأسه ولا يخجل أن يكون خادمًا لها، على

العكس أصبح يفتخر أمامها بذلك، وأنها اختارته من بين كل الرجال ليكون خادمها المطيع وحارسها الأمين.

مرت الشهور وجاء وقت الامتحانات، وكان حسام يستذكر دروسه بجهدٍ وجدّ، بناء على طلب عزة؛ حتى ظهرت النتيجة ونجح بتفوُّق، وطار سعادة بهذا الخبر، كما أنه طار إليها ليبشرها به. فرحت كثيرًا عزة وحضنته فترة طويلة، فركع على قدميها وقبَّلهما وأخبرها أنها هي سبب هذا النجاح والتفوق، فسعادته وهو بجوارها جعلته يتحمس للمذاكرة كما أنه كان لا يحمل همًّا لأي شيء، فأي شيء يتعرَّض له سواء كان ماديًا أو نفسيًا، كانت عزة هي المنقذ الوحيد له.

انتقل إلى السنة الثالثة بالمرحلة الثانوية، وفي بداية شهور الدراسة، انتكست والدته مرة أخرى وأصيبت بجلطة جديدة في المخ، وعادا إلى أيام المستشفى الأولى، فظلَّ يزورها يوميًا صباحًا ويعود مع عزة مساءً، ولكن هذه المرة لم تطل الأيام في المستشفى، فقد توفت كوثر بعد أيام من إصابتها بالجلطة.

* * *

كان حسام في حالة انهيار في تلك الأيام، ولم يحزن قَط من قبل مثلما حزنَ على والدته، ولولا وجود عزة بجواره لمات من الحسرة والحزن عليها. اتفقت عزة على قاعة فخمة لاستقبال العزاء وحضرَ عمه من أسيوط ليستقبل العزاء مع حسام، وبعد انتهاء اليوم ورحيل المُعزين، جلسوا ثلاثتهم في القاعة يتحدثون عن الوضع الحالي.

«انت يا حسام لازم تيجي معايا البلد، لا يمكن اسيبك هنا لوحدك».

تدخَّلت عزة فورًا في الحديث: «إزاي بس يا حج إسماعيل..؟ حسام في آخر سنة في الثانوية العامة كده مستقبله هيضيع».

«ينقل مدرسته هناك ويعيش حَدانا».

«لا يا حاج.. اسمعني اختلف معاك، ده مش وقت نقل خالص، دي آخر سنة، والثانوية العامة مش سهلة».

«أومال يعني اسيبه يجعد لحاله..؟ طب هيصرف منين ويعيش إزاي؟».

«الله يسامحك يا حاج، انت بتشتمني يعني..؟».

«ليه بس يا ست هانم.. أنا أجدر بردو..؟ حاشى لله..!».

«أومال إيه بقى كلامك اللي يزعّل ده..؟ يعني ابقى أنا موجودة على وش الدنيا؛ وتسأل حسام إزاي هيعيش..؟ دي أمه الله يرحمها كانت أختي، ما انت عارف إننا طول عمرنا أصحاب يا حاج».

كان حسام ينظر إليها وهي تتحدث، وكأنه متَّهمٌ خلف القضبان ينظر إلى دفاع محاميه أمام القاضي، لم يتجرأ على الحديث وهي تتكلم، فقد كان يتركها تتصرف في حياته كما تشاء، كما أنه داخليًا تمنى لو تستطيع إقناع عمه بالمكوث معها، فهو

لا يستطيع الابتعاد عنها لحظة ولا يتخيل الحياة بدونها، بل كان يشعر بكابوسٍ لمجرد أن يفكر في ذلك، ظلّ يدعو الله في نفسه أن يوافق عمه.

«أيوة بس... ».

قاطعته سريعًا: «ولا بس ولا حاجة يا حاج إسماعيل، حسام هيقعد عندي معزز مكرم، والفيلا بتاعتي واسعة، والشغالين هيخدموه، وأوعدك مش هخليه محتاج حاجة أبدًا، لحد ما يخلّص دراسته وأهو كل فترة يروح يطل على شقته عشان يفضل حافظ حقه فيها قُدّام صحاب البيت».

كانت تدافع عن جلوس حسام بالقاهرة، وبالأخص عندها بالفيلا باستماتة، فالموضوع بالنسبة لها كان مسألة حياة أو موت، كانت حربًا يجب أن تخرج منها منتصرة لا محالة، كما أنها بشخصيتها القوية لم تأخذ وقتًا طويلًا لإقناع الحاج إسماعيل بما تريده. وافق عمه على مضض وشكرها كثيرًا على شهامتها التي تنم على أصلها الطيب، فقد كان يعلم ما فعلته مع كوثر طيلة فترة مرضها، والأموال التي صرفتها عليها لأخر لحظة، كما أنها يعيش بمستوى ماديّ ضعيف، ولم يستطع وقتها أن يصرف على كوثر شيئًا، فشعر بإحراج أن يرفض طلبها بعد ما فعلته من أجلهم، عاد الحاج إسماعيل إلى بلده، ووعد حسام أنه سيزوره كل فترة وسيطمئن عليه عبر الهاتف دائمًا، وأخبره أنه إذا أراد أي شيءٍ لا يخجل أبدًا من اللجوء إليه.

كان حزن حسام أكبر بكثير من فرحته بالانتقال إلى فيلا عزة والمكوث عندها دائمًا، دون أن يضطر إلى الكذب أو تأليف القصص على والدته؛ ليستطيع البيات عندها، ولكن عزة لم تتركه في حالته هذه طويلًا، فقامت باحتوائه بشكلٍ جعله يخرج سريعًا من حزنه، بل ويتعلق بها أكثر بشكلٍ لا يُوصَف، جعلت بذكائها جميلها طوقًا يلتف حول رقبته لآخر يوم في عمره، شعر أنها أصبح أثيرها، سواء بما تفعله معه أو بسبب حبه لها. رغم حزنها الحقيقي على "كوثر" إلا أنها ارتاحت بعد وفاتها، حيث شعرت أن حسام أصبح مِلكها وحدها، لن تشاركها فيه أخرى، حتى ولو كانت الأخرى تلك هي الدته. فعندما كانت كوثر على قيد الحياة، ويأتي وقتٌ

يجب أن يختار فيه حسام بينهما، كان يختار "كوثر" بلا تردد، خصوصًا بعد مرضها الأخير، فكانت تشعر بغصة في قلبها أن "كوثر" تمتلك حسام أكثر منها، أما الآن فقد أصبح مِلكًا لها دون أيّ منازع، خصوصًا بعد أن أقنعت عمّه بأن يكمث لديها في الفيلا. أصبحت تعلم كل تحركاته، ولا شيء يحدث إلا بأمرها وتحت إشرافها، كانت أسعد أيام حياتهما معًا.

- 64 -

أصبح لحسام وعزة طقوس معينة، أحيانًا تذهب هي إلى شركتها التي قد كتبها لها زوجها وهو على قيد الحياة، كما كتب لها المصنع أيضًا والفيلا وكل شيء يمتلكه، ويذهب حسام صباحًا إلى مدرسته، وبعود في الرابعة عصرًا، يجلسان سويًا لتناول الغداء، وطبعًا أصبحت عادته المفضلة أن يتناول طعامه بجوار قدمها، ولم يشعر أبدًا أنها إهانة له، بل كان سعيدًا لذلك. ينهض بعدها ليستذكر دروسه لمدة ساعتين أو أكثر، ثم يعود ليجلس معها مرة أخرى، فمرة يحضر طبقًا بلاستيكيًا يضع به ماءً دافئًا وشامبو، يضع قدميها به ويقوم بتدليكهما برفق وتجفيفهما بالمنشفة، ثم يظل يقبلهما. وطبعًا لا ينسى أن يضع الكريم لها بعناية شديدة، فقد كانت قدم عزة شديدة الجمال والرقة، تهتم دائمًا بهما، بل كانت تعتبرهما أهم جزءٍ في جسدها. أحيانًا كانت تطلب منه طلبات غريبة، فمرة طلبت منه أن يمشي على أربعة، وتجلس هي على ظهره، ثم يسير بها وهو على هذا الوضع، فورًا وبدون أي مناقشات. كان يلبي كل طلباتها وينفّذها بحذافيرها. ركع على الأرض وسار على أربعة كما طلبت منه، ثم صعدت على ظهره وجلست، وظل يسير بها ويتجول في أنحاء الفيلا وكأنه يصطحبها في نزهة، كان كل شيء تطلبه منه؛ يصبح عادة بعد ذلك، ويقوم بتنفيذه دون حتى أن تطلبها. أيضًا مرة أخرى طلبت منه أن يستلقي على ظهره بالأرض، ثم صعدت فوق جسده وهي تسير فوقه ذهابًا وإيابًا. أول مرة استغرب طلبَها وشعر بألمٍ في جسده، وخصوصًا منطقة البطن، إلا أن وزنها الخفيف مع وجود عضلات في جسده بسبب التمارين التي لم ينقطع عنها؛ قد

جعلته يتحمل هذا، ثم مرة مع مرة أصبح تُثار شهوته من هذا الطلب، بل ويطلب منها أن تفعله، وأحيانًا يتوسل إليها.

ومرة أخرى ابتاعت له عبر الإنترنت طوقًا يضعه حول عنقه، ومزود بسلسلة طويلة كان يرتديها وتمسك هي السلسلة وتجره خلفها، ويمشي هو على أربع. هذه الميول الغريبة كانت تزيد من انتشائها وسعادتها جدًا، ومع الوقت بدأت تثيره هو أيضًا، حتى إنها أصبحت من أهم أسباب إثارة شهوته. كانت تطلق عليه "كلبي المدلل" وأحيانًا تناديه به عندما لا يكون أحد بالفيلا وعندما تكون راضية عنه. أما هو فكان يطير من السعادة، طالما يراها سعيدة وتشعر براحة. جاء الامتحان واجتازه بجدارة، حتى إن مجموعه كان يتناسب مع كلية الطب أو الهندسة، ولكنها أمرته بأن يكتب في أوراق التنسيق كلية التجارة كرغبة أولى له، وعندما استفسر عن السبب؛ أخبرته أنه سيعلم كل شيء لاحقًا، وبالفعل كتب "تجارة إنجليزي" كرغبة أولى له، ثم تجارة عادية القاهرة وعين شمس وحلوان، وبالطبع جاء التنسيق كما يريد تمامًا، فاستلم جواب يخبره بأنه تم قبوله بكلية التجارة إنجليزي جامعة القاهرة. وعلم بعدها أن رغبتها تلك كانت من أجل أن يباشر كل أعمال الشركة والمصنع عنها ليريحها من هذه المسئولية التي باتت ترهقها وأن يصبح الأمين على أموالها. أما عمه فقد نسي أمره شيئًا فشيئًا، وكأنه ألقى همًا عن عاتقه، حتى المكالمات أصبحت لا تزيد عن مكالمتين في السنة مع كل عيد، وأحيانًا مرة أول ليلة برمضان.

فرحت عزة لخبر نجاحه، ولكنها كانت تخشى عليه أن تلف رأسه أي فتاة من فتيات الجامعة كما يقولون، أو تغويه أو يعجب بها هو. فها هو أصبح من شباب الجامعات، وسيرى كل أشكال وأنواع الفتيات هناك. ذهبت معه أول يوم ونقلت جدول المحاضرات وهي تراقب كل تصرفاته عن كثب، أما هو فلم يحتج لكل هذه المراقبة؛ لأنه كان يعشقها، ولا يرى غيرها في هذه الدنيا.

إلا أنها في ذات المرات كانت تنتظره خارج الجامعة، ربما كنوعٍ من المفاجأة السارة، وربما كنوع من المراقبة الغير متوقعة. رأته يقف مع فتاة تبدو أنها زميلة له بنفس الكلية، ظلَّ واقفًا يتحدث معها لأكثر من نصف ساعة. أما عزة فقد كان الدم يغلي في عروقها من هذا المشهد، ظلت تنتظره إلى أن فرغ من حواره مع الفتاة، ثم رآها من بعيد فهرول إليها وقد بدا على وجهه السعادة الشديدة، فتح باب السيارة وجلس بجوارها بعد أن أمسك يدها وقبَّلها، لاحظ تغير وجهها؛ فسألها عن السبب ولكنها لم تجبه، قادت السيارة حتى وصلت إلى الفيلا، دخلت دون أن تنطق بكلمة واحدة، أما حسام فقد بدأ في التوتر والارتباك، فهو لا يعلم سببًا واحدًا لكل ما تفعله. تركته ودخلت غرفتها، دخل خلفها الغرفة وظلَّ يسألها عن سبب ضيقها. طلبت منه أن يتركها وحدها، وعندما أراد أن يتحدث مرة أخرى نظرت له شذرًا، ترك الغرفة على الفور وخرج، فقد كان يقرأ نظرات عينها، ونظراتها في هذه اللحظة كانت كلها غضب. ظلَّ إلى المساء جالسًا في غرفته مرتبكًا مهمومًا، حزينًا يتمنى لو يعرف فقط سبب غضبها، حاول دخول غرفتها مرة أخرى، ولكنه وجده موصدًا بالمفتاح، عاد إلى غرفته، ولم تغفل عيناه حتى الصباح.

أما هي فكانت مستلقية على فراشها، تفكر بغضبٍ وحزنٍ معًا.. هل حسام قد يفلت من بين يديها..؟ هل من الممكن أن يقع في غرام فتاة، ويعيش حياته مثل أقرانه..؟ مجرد أن تأتي هذه الأفكار في رأسها، كانت حدقتا عينها تتسع تلقائيًا، وتُبرَز العروق في عنقها من الغضب. هل بعد كل هذه السنين تأتي فتاة وتأخذه منها هكذا بكل سهولة..؟ بعد أن روَّضَتْه وأصبح طوعًا لها في كل شيء، ويعلم كل ما يرضيها وينفّذه بحذافيره، يضيع منها كل شيء بهذه الطريقة..؟ ظلَّت مستلقية في فراشها حتى راحت في النوم.

- 65 -

وفي منتصف الليل رنَّ جرس الهاتف بجواره فالتقطه بسرعة كعادته وكأنه دائمًا ينتظر شخصًا مهمًا بالرغم من عدم معرفته بأيّ أحدٍ.

«طلعت عينى لحد ما عرفت اجيب رقمك »

«مين معايا ؟»

«نسيت صوتي يا سمسم »

«سمسم ؟ »لم ينادِه أحد بهذا الاسم سواها. نظر مرة أخرى إلى شاشة الهاتف ليتأكد. فوجد الرقم كما توقع. رقم دولي

«ريم؟» سألها بشغفٍ وكأنه ينتظر إجابة محددة.

«أيوة يا حسام ، وحشتني أوي انت وماما »

«ماما ؟ الله يرحمها »

صدرت صرخة عالية كادت أن تطيح بطبلة أذنه، تلاها وصلة بكاء لم تنقطع إلا بعد انتهاء الدقيقة الثانية .

« انتي السبب في موت ماما، أنا لو شُفتك هـ..... »

«متقولش كده يا حسام ورحمة ماما، والله ما كنت أقصد، أنا كنت عايزة نعيش عيشة حلوة »

«مش عايزة أسمع صوتك تاني انتي فاهمة ؟»

«أرجوك يا حسام متعاملنيش كده أنا أختك »

«عايزة إيه دلوقتي ياست اختي هانم؟»

«عايزة أطمن عليك»

«أنا كويس. عايزة إيه تاني؟»

«انت عايش فين ومع مين. أكيد عند عمي في أسيوط صح؟»

«لأ، مع عزة»

«عزة مين ؟»سألته بنبرة استغراب

«طنط عزة»

«دي إنسانة مش كويسة يا حسام»

«الإنسانة اللي مش كويسة دى هي اللي صرفت على أمك في المستشفى طول فترة مرضها وقت ما انتي سيبتينا وهربتي، ولو سمعتك بتقولي عليها كده تاني هتشوف مني وش عمرك ما شُفتيه ياريم. فاهمة ؟»

اندهشت "ريم" من دفاع حسام المستميت عن عزة ولم تجبه إلا ب «حاضر»خوفًا من نوبة غضبه تلك، ثم استطردت حديثها بسؤال آخر انت قاعد معاها في فيلتها ولّا في شقتنا ؟

«في فيلتها » أجابها بنبرة تفيد الملل من كثرة الأسئلة، ثم أنهى المحادثة بعد قليل من الأسئلة منها والأجوبة المقتضبة منه.

- 66 -

أتى الصباح وذهب إلى غرفتها للمرة الثالثة، دقَّ الباب عليها أكثر من مرة، فتحت بالمفتاح ونظرت إليه ثم مرت من جانبه وكأنه هواء، زاد ارتباكه وتوتره، توسل إليها أن تخبره ما بها، هل أخطأ دون أن يدري..؟ هل صدر منه أي شيء أغضبها..؟ ظلَّ يتوسل ولكنها لم تجبه وتعمَّد إلا يخبرها بمكالمة ريم ليلة أمس حتى لا يزيد من غضبها فالأمر أصبح لا يحتمل أى تعقيد بعد هذا الوضع الذى لم يفهم سببه حتى الآن. كان يسير خلفها في كل مكان تذهب إليه كطفلٍ يلتصق بيد أمه، عندما عجز عن معرفة أي شيء، وعندما رفضت الحديث معه؛ بدأ يبكي ثم ازداد البكاء حرقة، كل ذلك وهو يسير خلفها في كل مكان بالفيلا. حتى إنه قرر عدم الذهاب إلى الجامعة هذا اليوم، بالرغم من وجود محاضرات هامة، قد أخبرهم بها الدكتور قبلها، وطلب من الجميع الحضور، كل هذا في ذلك الوقت لم يعنه في شيء: "تبًا

للدكتور ولتذهب الجامعة بأكملها إلى الجحيم". هكذا شعر من داخله. لم يُرد أي شيء في الدنيا إلا أن يرضيها ويعلم ما بها.

كان حسام يروي وهو متأثر، حتى إن دموعه سقطت منه رغمًا عنه أمام مها...

ربتت مها على ظهر يده، وطلبت منه أن يشرب من القهوة ويهدأ قليلًا ثم يستكمل حديثه. مسك الفنجان بيدٍ مرتعشة، وارتشف منه رشفة صغيرة ثم أشعل سيجارة وظلَّ يسحب منها الدخان بنهم..

«بتخوني يا حسام..؟». قالتها بعد أن بدأ يفقد أعصابه من كثرة البكاء. قالتها بعد صمتٍ طويل.

«أنا». سألها باندهاش، فهذا هو آخر شيءٍ توقعه.

«مين البنت اللي انت كنت واقف معاها دي..؟». سألته وهي تنظر إلى عينيه مباشرة؛ لتستشف صدقه من كذبه.

نظر إلى سقف الغرفة ليتذكر سريعًا أي فتاة تلك التي تتحدث عنها عزة..؟ فهو لا يقف مع أي فتيات في الجامعة، كما أنه لم يُنشئ أي صداقات سواء لبنات أو لشباب، تذكَّر سريعًا الفتاة التي وقف معها قبل أن يرى عزة فأجاب سريعًا: «آه.. دي بنت كانت بتسألني على حاجة في المحاضرة، مكانتش فهماها».

«وتسألك انت ليه..؟ اشمعنى انت بالذات..؟».

«والله يا ستي مش عارف، وعمري ما افكر اخونك أبدًا».

تركته ورحلت من أمامه، وكأنها ألقت الكرة بملعبه، فها هي قد أخبرته بما كان يتمنى لو يعلمه، وستنتظر ردة فعله وماذا سيفعل ليرضيها. خرجت إلى الاستراحة الموجودة بالدور الثاني، وأدارت التلفاز وكأن شيئًا لم يكن، وظلت تقلّب قنواته وتشاهده بهدوء أعصاب مصطنع. ركض خلفها فورًا وظلَّ جالسًا أرضًا، تحت قدميها يحاول أن يتحدث معها ويشرح وجهة نظره حيال الموضوع، ولكنها دخلت في

صمتها للمرة الثانية ولم تجبه، هنا فقط انهار حسام، ظلَّ يبكي بهستيرية وجسده كله ينتفض بشدة، حتى إنه كل دقيقة والأخرى يصدر "شحتفة" كالأطفال، ظلَّ يقبّل قدميها حتى تعفو عنه وتسامحه، أخبرها أنها ستكون آخر مرة يتحدث فيها مع فتاة، بل يتحدث فيها مع أي أحدٍ على وجه العموم، أخبرها أنه سيعود فورًا إلى الفيلا بمجرد أن ينتهي من محاضراته، بل لو أمرته أن يترك الدراسة برمّتها سيفعل دون نقاش.

ظلت صامتة لا تجيبه ولا تنظر إليه، وكأنه غير موجودٍ، بدأ صوت بكائه ونحيبه يعلو أكثر. أقسم لها إنه لن يذهب إلى الجامعة مرة أخرى حتى تعفو عنه وتسامحه، وبصوت باكٍ أخبرها أنها كل ما تبقى له في هذه الدنيا، وأنه بدونها لا شيء يُذكَر.

لساعتين متواصلتين ظلَّ يتوسَّل إليها ويقبّل قدميها، حتى إنها تبللت من كثرة دموعه المتساقطة عليها، بدأ قلبها يلين بعد فترة طويلة من التوسل، نظرت إليه وأخبرته أنها ستكون أول وآخر مرة تسمح له أن يتحدث مع أي فتاة، حتى لو لم يتعدَّ عمرها الخمس سنوات. كانت غيورة بشكلٍ مرضيّ كما أنها كانت مصابة بمرض حب التملك، الشيء الذي في يديها مجرد أن ينظر إليه أحد؛ كان كفيلًا بأن يعكر صفو حياتها ويخرج الشيطان الكامن بداخلها ويجعل مزاجها في أسوأ حالاته، فلا أحد يلمس ممتلكاتها أبدًا أو يجرؤ على التفكير في هذا.

بعد أن أخبرته بذلك، ألقت إشارة إليه أخيرًا بمسامحته. ظلَّ يقبّل يديها وقدميها مرة أخرى، ولكن بسعادة لا تُوصَف هذه المرة؛ لسببين أولهما: أنها سامحته وغفرت له غلطته التي لم يكن يقصد أن يرتكبها أبدًا. ثانيًا: لأنه شعر بغيرتها تلك لأول مرة، فلم يحدث أمرٌ مشابه من قبل يعلم من خلاله هذه الصفة فيها، وأنها تحبه فعلًا، وأنه ملكها وحدها.

بعد هذا الموقف لم يتحدث مع أحدٍ مطلقًا في الجامعة، ذكرًا كان أو أنثى، حتى إن نفس الفتاة اعترضت طريقه وهو يستعد للرحيل بعد المحاضرة؛ لتسأله عن

شيء، وقد بدا عليها أنها معجبة به، وتريد أن تسأل في أي شيء لمجرد أن تقف معه. تركها ورحل دون حتى أن يعتذر. استغربت الفتاة بشدة، بل بغضته من هذا التصرف الذي لا يمتّ للذوق بأي صلة، وبعدت عنه تمامًا، ولم تحاول محادثته بعدها أبدًا.

بدأت الحياة تستقر مرة أخرى بعد هذا الموقف، وبدأ يسترجع حنانها له شيئًا فشيئًا، شعر بالفرق الرهيب بين الوقت الذي تكون راضية عنه فيه، والوقت الذي تكون غاضبة منه، فحاول أن يرضيها دائمًا بكل الطرق، لأنه لن يستطيع أن يتحمل معاملتها له بهذا الأسلوب مرة أخرى. كان يبتكر كل الطرق التي ترضيها، بل كان يسهر في بعض الأيام يفكر في أساليب جديدة تسعدها وتجعلها راضية عنه.

* * *

- 67 -

بدأ قلق كريم يزداد، فمها لأول مرة تغيب عن المنزل ليومين كاملين، دون أن تخبره عن مكانها. فها هو صباح يوم آخر لا يراها فيه ولا يعرف أين هي. اتصل بأهلها وكأنه يسأل عن أخبارهم بشكل طبيعي، ولأول مرة يفعلها، استغربوا في البداية من المكالمة، ولكنه وجدهم طبيعيين ويبدوا عليهم أنهم لا يعلمون شيئًا، خصوصًا بعد أن سألوه عن أخبار مها وصحتها، فأخبرهم أنها بخير ولكنها مشغولة في العيادة، وسوف تزورهم في القريب العاجل. أغلق التليفون وظلّ يفكر، هل غضبها منه يصل إلى درجة أنها تترك المنزل..؟ ولكن لو هي غاضبة إلى هذه الدرجة؛ فلماذا لم تترك المنزل منذ شجارهما آخر مرة..؟ شعر أن السبب غير منطقي، ولكنه لم يجد سببًا آخر لغيابها عن المنزل دون أن تخبره. ذهب إلى الجاليري، ولكن هذه المرة كان ذاهبًا وهو مُحبَطٌ وحزينٌ. فهو لا يعلم مكان زوجته وهل هي بخير أم لا..؟ جلس في عمله يفكر ماذا يفعل، هل يقوم بإبلاغ الشرطة عن اختفائها..؟ هل يبحث في المستشفيات..؟ فقد يكون أصابها مكروه أو صدمها أحدهم بسيَّارته. توتُّره الزائد جعله لا يستطيع التصرف تمامًا، فظلّ منتظرًا لعلها تعود وحدها اليوم.

- 68 -

نزل صباحًا واتجه إلى مولٍ كبيرٍ وابتاع كاميرا مراقبة صغيرة، عاد إلى المنزل ودخل غرفة نومه مباشرة وثبّتها في الجدار، في مكانٍ بعيدٍ عن الأعين تمامًا، وفي نفس الوقت يعرض الفراش بأكمله ومن عليه.

بعدَ ساعة دقَّ جرس الباب، وجدَ شيطانًا لونه أحمر وبرز من رأسه قرون طويلة. سرت قشعريرة بجسده، ولكنه تمالك أعصابه وقال بابتسامة مصطنعة: «روشا حبيبتي وحشتيني».

«حبيبي يا ميزو». قالتها وهي تطبع قبلة طويلة على شفتيه.

«حبيبة قلب ميزو».

جلست على الأريكة في الصالة، ودخل هو المطبخ وأعدّ لها كوبًا من العصير، تحدثا قليلًا ثم اقترب منها وجذبها بقوة من ذراعها، اصطحبها إلى الغرفة. كانت تضع قميص نوم قصير في حقيبة يدها، دخلت الحمّام وارتدته، وخرجت لتجده ينتظرها على الفراش فاتحًا ذراعيه لها. فعل مثلما فعل مع شوشو، كانت المضاجعة عنيفة وامتدت لوقتٍ طويلٍ، وكان حريصًا طوال اللقاء أن يظهر أمام الكاميرا بظهره، وتعمد كل فترة أن يظهر وجهها أمام الكاميرا. بعد أن فرغا ارتدت ملابسها وودعته وهي تبتسم ابتسامة رضا، طبع قُبلة أخيرة على شفتها ورحلت. عاد سريعًا إلى الغرفة وأخرج الكاميرا، أعاد تشغيلها مرة أخرى ليتأكد من جودة التصوير، نقلها في أسطوانة كمبيوتر، وأرسل الأسطوانة عبر البريد على عنوان منزلها، في ظرفٍ مكتوب عليه "لا يفتح إلا بواسطة أ/جمال" والدها، فقد كان يعلم عنوانها بالتفصيل، فكثيرًا ما كان يقوم بتوصيلها إلى باب العمارة بعد أن ترحل من عنده. كان يشعر بسعادة كلما فعل ذلك. فعندما أرسل رسالة لزوج شوشو؛ شعر أنه يطير فوق السحاب، وها هو الآن وللمرة الثانية يشعر براحة غريبة، لأول مرة يشعر بها. أخرج من دولابه الورقة التي سبق وكتب بها أسماء من ضاجعهن، ووضع علامة "صح" بجوار اسم رشا، بعد أن أعاد بالقلم مرة أخرى على العلامة الموجودة بجوار اسم شوشو. قام بالاتصال سريعًا برانيا، فقد شعر أنه لا يجب أن يهدر وقتًا كثيرًا في الانتقام، أراد أن يرتاح نهائيًا مما كان يشعر به، منذ أن رحلت مها من شقته.

- 69 -

ذهبت مها إلى العيادة في ميعادها اليومي، فلم تستطع أن تلغي مواعيد مرضاها ليوم آخر، استقبلت المرضى وانهمكت في العمل، حتى جاء موعد الرحيل، ظلت تفكر وهي مترددة.. هل تعود إلى الفندق مرة ثانية، وتحجز ليلة أخرى، فقد شعرت

بتحسن كبير عندما غابت عن وجه كريم لفترة..؟ أم تعود إلى منزلها وتعيش بشكلٍ طبيعي، وكأن شيئًا لم يحدث..؟ قررت أن تبيت ليلة أخرى خارج المنزل، ولتكون هذه المرة في العيادة، ولكن قررت أيضًا أن تتصل بكريم، وتخبره أنها بخير؛ حتى لا يقوم بأيّ تصرفٍ أحمق، كأن يبلغ الشرطة مثلًا، أو يخبر أهلها، اتصلت به على هاتفه..

«مها.. انتي فين أنا قلقت عليكي جدا..؟».

بمجرد أن سمعت صوته، أزاحت الهاتف بعيدًا عن أذنيها، وأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر، وهي ممتعضة، بل وكادت أن تغلق الهاتف فورًا، ولكنها تحاملت على نفسها وردت رغمًا عنها: «أنا كويسة يا كريم. بس محتاجة ابقى لوحدي شوية».

«ليه يا مها..؟ ما احنا كنا زي الفل». كان غير مقتنع تمامًا بما يقوله، ولكنه قاله لعلَّ وعسى.

«محتاجة أكون لوحدي شوية يا كريم». قالتها هذه المرة بصوتٍ حادٍ، وكأنها تحذّره من غضب جامح، عاصف قد يطيح به في أي لحظة.

«أوك يا حبيبتي براحتك، اللي يريحك اعمليه، بس انتي قاعدة فين وجاية إمتى..؟».

«متقلقش أنا في مكان أمان، وجاية بكره أو بعده بالكتير».

«أوك يا حبيبتي، خلّي بالك على نفسك».

لم ترد عليه وأغلقت الهاتف، ثم تنهدت تنهيدة طويلة زفرت خلالها جروحها وآلامها. استلقت على الشازلونج، وأغمضت عينيها وهي تتمنى أن يأتي النوم سريعًا ويتوقف عقلها عن التفكير، ولو لليلة واحدة، وبالفعل وكأن باب السماء كان مفتوحًا، استغرقت في النوم رغم أن المكان لم يكن مريحًا. إلا أنها لم تشعر بأي شيءٍ حتى الصباح، وكأن النوم هو ملاذها الوحيد مما تعانيه.

* * *

- 70 -

كانت عادة حسام اليومية، إما أن يدخل على الفيسبوك ويبحث عن هانم، أو ملكة أو سيدة تريد خادم، وإما أن يبحث عبر جوجل على صور لأقدام، أو لأحذية نسائية. فهو بات يعشق أيضًا أحذية السيدات بجانب عشقه لأقدامهن، حتى إنه ابتاع أحذية نسائية كثيرة ورصَّها عنده بالمنزل، ورغم أنها كانت كلها جديدة؛ إلا أنه كان كل فترة يحضر قطعة قماش ويظل يلمع فيها وينظفها، فكان يشعر براحة نفسية كبيرة؛ لأنه كان يتذكر عزة سريعًا عندما يفعل ذلك. فكثيرًا ما كان يجلس بجوار قدم عزة، وهي تشاهد التلفاز، ويُحضر أحذيتها ويظل ينظفها بعناية شديدة، وهي تنظر إليه في سعادة. فكلما فرغ من تنظيف حذاء، يقبّله ويضعه في الصف الذي صنعه، حتى يفرغ منهم جميعًا. وبالفعل قام إلى دولاب الأحذية، وأخرج كل الأحذية النسائية التي ابتاعها، فقد كان يشتري كل الأنواع منها. فمرة يبتاع حذاءً مغلقًا، ومرة مفتوحًا، مرة صندل ومرة أخرى شبشب، أيضًا كان يعشق الأحذية ذات الرقبة الطويلة "بوت"، ويعشق بشكلٍ خاص الكعب العالي. جلس على الأرض ومسك الأحذية حذاء حذاء، يلمّعها وينظّفها، ثم يقبّلها جميعًا ويرصّها مرة أخرى بالدولاب. دخل يرتدي ملابسه حتى يذهب إلى مها في ميعاد الجلسة المحددة له.

- 71 -

عادت مها إلى منزلها واجتنبت كريم نهائيًا. وحدث بينهما مشاجرة كبيرة بسبب رفضها الخروج معه يوم الجمعة، وطبعًا لم تخبره مطلقًا بما حدث مع معتز. انتهت المشاجرة بأنها صممت على رأيها وذهب كريم لأول مرة منذ زواجهما بمفرده، تعلل لهم أن مها مريضة، ولن تستطيع الحضور، بل ولم ينسَ أن يضع لمساته الأخيرة على حواره الكاذب، فأخبرهم أنها مستاءة جدًا لعدم استطاعتها الحضور، كما أن معتز أيضًا لم يكن موجودًا. عدم وجود معتز ومها جعل اليوم ثقيل الظل، فأنهوا

المقابلة باكرًا، ورحل كل منهم إلى بيته، ووعدهم كريم بلقاءٍ قريب يجمعهم بعد أن تسترد مها صحتها. وبعد أن يقنع معتز بالحضور في المقابلة اللاحقة.

- 72 -

ظلَّ معتز يتصل يوميًا بقائمة النساء التي سبق وأن كتبها في ورقة، يقوم الأول بمضاجعة عنيفة تدوم لساعات، ثم تأتي الخطوة الثانية في الانتقام، ويشعر براحة شديدة بعدها وهو يخبر أهلها.. سواء زوج، أو ابن، أو أخ، أو أب. كما أنه انقطع عن الخروج مع "الشلة" تمامًا، ولم يجب على اتصال أيٍّ منهم، وبعد فترة كبيرة من انقطاعه تطوَّع كريم أن يذهب إليه، ليطمئن عليه ويعرف سبب اختفائه المفاجئ. بالفعل ذهب إليه ودقَّ جرس الشقة عدة مرات، فلم يفتح معتز، ربما نظر من العين السحرية فقرر ألا يفتح له، وربما كان يضاجع امرأة من قائمة المنتقم منهن. تذكر كريم أن بحوذته نسخة من مفتاح شقته، فهو أقرب صديق لمعتز عن باقي أصدقاء الشلة، وكان دائمًا يذهب له، وسبق وأعطاه معتز نسخة من مفاتيح شقته التي لم يستخدمها كريم قط من قبل. أخرج ميدالية المفاتيح. وقبل أن يفتح الباب أخرج هاتفه واتصل به كتجربة أخيرة قبل أن يفتح باب الشقة بمفتاحه، لم يجبه معتز. ولكن سمع كريم صوتًا بعيدًا لهاتف معتز فتأكد أنه بالداخل. فتح الباب وهو يتمنى ألا يجده نائمًا مع امرأة؛ حتى لا يسبب له ولمن معه أي إحراج. بحث عنه في الصالة وفي المطبخ والحمّام فلم يجده، دخل غرفة النوم على استحياء، حتى يبس الدم في عروقه وصُدِم مما رآه.

* * *

- 73 -

في يوم.. فتح حسام قدرًا إيميله الشخصي، المستعار على الفيسبوك؛ فوجد إشعارين ورسالة، لم يصدق عينيه، فمنذ أن أنشأ هذا الحساب، ولا أحد يراسله أبدًا، باستثناء الملكة المحتالة التي راسلته، وسرقوا منه بسببها محفظته، وقد حذفها نهائيًا بعدها من قائمة أصدقائه، بعد أن أرسل لها رسالة ملينة بوابل من الدعوات عليها وعلى من أبرحه ضربًا. فتح الإشعارين سريعًا، بعد أن تمتم ببعض الأدعية؛ فوجد إعجابًا على آخر "بوست" كتبه على صفحته الشخصية، من "الملكة نسرين" وتعليقًا منها أيضًا مكتوب به "انبوكس". نظر سريعًا على الرسائل فوجدها قد راسلته وكتبت: «أنت فين..؟».

دقَّ قلبه وكتب دون تفكير: «أنا موجود أهو يا هانم.. خدامك وتحت أمرك».

انتظر أن ترد عليه، فلم يجد أي جواب، دخل سريعًا على صفحتها الشخصية وظلَّ يتجول فيها، فوجدها قد كتبت أكثر من بوست بنفس المعنى:

«مبقاش فيه خدامين حقيقيين، خلاص كله كدب في كدب».

«بدور من فترة على خادم حقيقي، ومش لاقيه كله داخل يهزر».

«محتاجة خدام يخدمني في الحقيقة، مش على الفيسبوك».

لم يصدِّق عينيه، ولم يصدق ما رآه. هل وجد أخيرًا ملكة حقيقية تبحث هي الأخرى عن خادمٍ حقيقيّ..؟ أم أنها محتالة مثل الكثيرات رائدات الإنترنت..؟ هل يخوض التجربة، أم يلتزم بعهده الذي تعهَّد به..؟ وهو ألا يذهب لأي عنوان عبر الإنترنت. تذكَّر سريعًا أنها لم تعطه عنوانًا أصلًا. وأنها فقط أعْجبت بالبوست الخاص به، وتركت "كومنت" ورسالة لا يعبّران عن شيءٍ. انتبه وهو في صفحتها الشخصية أنها ليست صديقة عنده في قائمة الأصدقاء، ظلَّ يفكر ثانية.. كيف عرفت بالأكوتن الشخصي الخاص به..؟ هل أعطاه أحد لها..؟ ولكنه لا يعرف

أحدًا شخصيًا عن طريق هذا الحساب، هل قامت بعمل بحثٍ عشوائي فوجدته صدفة كما يفعل هو..؟ قاطع تفكيره صوت رسالة واردة فذهب سريعًا ليفتحها.

«مردتش بسرعة ليه..؟».

«آسف يا هانم، والله مكنتش موجود».

«عارف لو بعد كده بعتلك رسالة ومردتش في نفس اللحظة: هعملك بلوك فورًا».

شعر براحة كبيرة من ردودها الجافة، فهو أصبح بخيرته الغير قليلة يعرف الملكة الحقيقية من التي تدعي ذلك: «حاضر يا هانم آسف».

«انت اسمك إيه..؟ واوعى أكتشف إن اسمك مش حقيقي في يوم من الأيام».

بلع ريقه بصعوبة شديدة، ارتبك وفكر هل يخبرها باسمه الحقيقي أم يقول الاسم المستعار..؟ هل لو قال اسمًا مستعارًا وعلمت ماذا ستفعل..؟ ولكن كيف ستعلم أنه اسم غير حقيقي..؟ ماذا لو طلبته يخدمها في الحقيقة، وطلبت رؤية بطاقته الشخصية..؟ أكيد سيخسرها وقتها فورًا، ويُضيِّع على نفسه فرصة كان ينتظرها من فترة كبيرة.

«اسمي حسام». قالها دون تردد، ثم استغرب نفسه جدًا بعد أن أرسل الاسم، ولكن سرعان ما طمأن نفسه، أن هناك مئات بل آلاف من اسم حسام.

«ساكن فين..؟».

تردد ثانية.. هل يقول أي مكان، أم يقول مكان سكنه الحقيقي..؟

«مش بترد ليه يا حيوان..؟».

«آسف يا هانم أصل... ».

«هي فيها أصل..؟ آه أوك باي».

«لحظة بس يا هانم.. آسف والله، أنا ليا شقة في عابدين، وليا فيلا في المقطم». لم يعلم كيف ارتكب هذا الخطأ وهذه الحماقة، فلو أن هناك مئات من اسم حسام، ولكن أن يكون حسام ولديه شقة في عابدين وفيلا بالمقطم، فلن تكون صدفة بالمرة، وأكيد لن يمتلك أحد هذه المواصفات. ظلّ صامتًا ينتظر منها ردًّا ولكنها لم ترد، فكتب: «حضرتك هنا يا هانم..؟».

«انت متجوز..؟».

«لأ».

«عندك كم سنة».

«30».

«وليه مش متجوز..؟».

« الحقيقة أنا مش مقدر أتجوز واحدة عادية، لأني خادم حقيقي ومش أي واحدة هترضى بطباعي».

«كلكم بتقولوا كده، وفي الآخر بتطلعوا كدابين».

أرسل بسرعة: «والله أنا خادم حقيقي، ويا ريت لو حضرتك تتكرمي وتجربيني».

«ابعتلي صورتك».

ارتبك أكثر لطلبها، فبصورته هذه سوف تلتصق به التهمة إلى الأبد، ولكنه تذكر أنه ليس لديه صور أصلًا، فهو لم يفكر أن يتصور في يوم، فكتب سريعًا: «والله مش عندي يا هانم».

«انت شكلك متعب أوي، وأنا مش ناقصة وجع دماغ، باي».

«طب لحظة بس يا هانم، أرجوكي اديني فرصة».

اكتفت هذه المرة بإرسال: «؟؟؟».

«والله مش عندي، طب حضرتك اطلبي مني أي طلب تاني وأنا خدامك ورهن إشارتك».

ظلت صامتة لا ترد عليه، أرسل رسالة ثانية وثالثة ولم ترد عليه.

«أيوس رجلك يا هانم، طب أعمل إيه عشان ترضي عني..؟».

«عندك كام..؟».

فكر قليلًا.. هل يكذب ويدعي أنه ليس لديه كاميرا..؟ ولكنه لديه لاب توب، والطبيعي أن يكون لديه كاميرا به، هل يخبرها أم لا..؟ ظلّ مترددًا لثوان، فوجدها أرسلت رسالة: «تاني..؟ انت لسه هتفكر..؟ انت حيوان ولا تسوى، وأنا غلطانة إني ضيعت وقتي مع واحد زيك».

«عندي عندي يا هانم».كتبها بسرعة، بيدين مرتعشتين.

«خلاص مبقاش ينفع، أنا اديتك فرصة وانت ضيعتها».

«أرجوكي يا هانم، أرجوكي آخر فرصة مش هعمل كده تاني».

لم يستلم أيَّ ردٍ منها، وظلّ حوالي ساعتين متواصلتين رابضًا أمام اللاب توب، دون أن يتلقى أية إجابة، حتى يئس وقام وهو يبكي من غبائه، مُؤنّبًا نفسه بشدة أن ليته أجابها بسرعة، ليته استغل هذه الفرصة التي ربما لن تتكرر ثانية. كان يبكي بشدة كطفلٍ تاه عن يد أمه للتو، تذكر عزة للمرة المليون، وتذكر احتواءها له، وفقدانه لها. شعر أنه لن يجد مثلها مرة أخرى، فهي كانت ملكة حقيقية.. تحتوي خادمها، وتحنو عليه، وتقسو عليه في بعض الأوقات، لكنها تعود وتصفح وتسامح، ليته ذهب معها، ليته.

* * *

عاد كريم إلى منزله بعد أن أنهى زيارة معتز، دخل غرفة النوم، وجد مها مستلقية على الفراش تقرأ في كتاب، لم يُلقِ عليها السلام. فالطبيعي حتى ولو كانت غضبانة منه، أو حدثت مشاجرة بينهما كان يلقي السلام كل يوم، سواء ردت عليه أو لا، ولكن هذه الليلة لم ينبس ببنت شفة، حتى إنه لم يأخذ حمَّامًا ساخنًا كما اعتاد.

بدَّل ملابسه سريعًا وصعد فوق السرير دون كلمة واحدة، اندهشت مها من طريقته، فكانت غريبة بالنسبة لها، ولكنها لم تبالِ. أكملت قراءة الكتاب، أما هو فسبح تحت الغراش وغطى وجهه بالكامل، كان جسده يرتعش وتعرَّق بأكلمه.

تذكر المشهد من جديد وكأنه كان حلمًا، بل كابوسًا..

ظل واقفًا مصدومًا للحظات حتى يتأكد مما يراه الآن، هل هو يحلم أم حقيقة.. معتز مستلقٍ بجسده على الفراش، عاريًا تمامًا، وقد كان غارقًا في بركة من الدماء، منفرج الفم، وعيناه زائغتان لأعلى، وكأنه قبل أن يموت تلقَّى صدمة في شخصٍ ما، أو كأنه لم يصدق ما رآه قبل موته، كانت الدماء مازالت سائلة وكأنه قُتِل الآن.

اقترب كريم من الجثة ليتأكد من شخصية المقتول، وعندما اقترب وجده بالفعل هو، شعر بانقباضة في قلبه عندما رأى الموت متجسِّدًا في جسد معتز، وارتعشت قدماه بشدة، حتى إنه لم يقوَ على الوقوف، وخفقات قلبه تزداد سرعة وقوة. فمعتز لم يمت موتًا طبيعيًا إلهيًا، ولكنه قُتِل..! مَن قتلَه ولماذا..؟ هل هو سيء إلى هذه الدرجة..؟ هل أذى أحدهم؛ حتى يقتله بهذه البشاعة..؟ فأنا لم أرَ منه أي سوءٍ من قبل. كانت هذه الأسئلة التي طرقت إلى ذهنه في لحظات، أيخبر الشرطة بما حدث، أم يخرج وكأن شيئًا لم يكن..؟ شعر برعبٍ فظيعٍ، وضاق صدره وكأن الأكسجين بدأ بالانسحاب تدريجيًا من الغرفة، حاول أن يتنفَّس فلم يستطع، هرول إلى باب الشقة، هرول بكل ما أوتي من قوة، هرول وهو في حالة من الرعب والخوف والحزن معًا، أغلق باب شقة معتز ورحل فورًا، رحل نهائيًا بلا عودة.

* * *

كان حسام في حالة غير طبيعية، شعر أن الفرصة واتته ولم يستغلها كما ينبغي، فتح اللاب توب مرة أخرى ودخل على حسابه، وظلَّ يرسل إليها توسلاته مرات ومرات، بلا رد وبلا إجابة.

انتظر كثيرًا أمام حاسوبه؛ لعلها تعود وتسامحه. فتح صفحة صور جوجل كالعادة وظلَّ يبحث مرة أخرى على الأقدام والأحذية النسائية، وبينما هو يشاهد ما يعشقه انتبه إلى صوت رسالة عبر الفيسبوك، فهرولت يداه مسرعة إلى صفحته الشخصية وفتح الرسالة فورًا:

«عايز إيه..؟».

ارتعشت يداه وتعرق جبينه وبلع ريقة كشوكٍ حادّ، ظلَّ يدعو الله أن يتصرف بحكمة هذه المرة، وألا يغضبها ثانية: «أرجوكي يا هانم.. تقبَّلي أسفي واعتذاري، أرجوكي اديني فرصة ثانية». أرسل لها الرسالة مصاحبة لصورة وجه يبكي.

«أوك».

دقَّ قلبه فرحًا، وظلَّ يحمد الله على استجابة دعوته: «أشكرك أشكرك يا هانم، ربنا يخليكي، ربنا يخليكي».

«عندك كام..؟».

فورًا وبدون تردد: «أيوة يا هانم عندي، تحبي أفتحها لحضرتك..؟».

«أومال بسألك عشان أطمن عليها..؟».

«أسف يا هانم مقصدش، طب حضرتك ممكن تتكرمي وتبعتيلي إيميلك على الياهو أو الهوت ميل..؟».

أرسلت له إيميل الياهو، وقام سريعًا بإضافتها إلى قائمة أصدقائه، انتظر قليلًا حتى قبلت الإضافة: «نورتي يا هانم الإيميل، نوَّرتي الدنيا كلها يا ست الكل».

«افتح الكام ومترغيش كتير».

«حاضر». قالها وهو يرسل لها دعوة للكاميرا فورًا.

كان يجلس مرتبكًا متوترًا، لا يعلم أي شيءٍ عن الشخصية التي يتحدث معها، ولكن خوفه من أن يفقدها كان أكبر من خوفه من الفضيحة.

«انت قاعد وانت بتكلمني..؟».

«حضرتك تؤمرني بإيه وأنا أنفذ فورًا..؟».

«اركع على رجلك يا حيوان».

انتفض من على مقعده سريعًا، هوى على الأرض وركع على ركبتيه، بالرغم من خوفه الشديد من الشخصية التي يتحدث معها، أو من تكون إلا أنه كان سعيدًا بطلبها، وكأنه استردَّ عصر الخدمة من جديد. كان قلبه يرقص من الفرح وهو راكع على الأرض منتظرًا أوامرها. رآها كتبت شيئًا لم يتبينه، فنهض وذهب إلى اللاب توب، فقد نسي من ارتباكه أن يأخذه معه.

«أنا هافضل أختبر طاعتك لفترة، لو نجحت في الاختبار: هخليك تجيلي شقتي وتخدمني على الحقيقة».

تهللت أساريره وكاد أن يرقص من شدة الفرح، فها هو سيخدم ملكة حقيقية من جديد: «أنا خدامك وتحت رجليكي يا هانم، اعملي فيا اللي حضرتك عايزاه».

* * *

تحامل كريم على نفسه كثيرًا؛ حتى يبدو طبيعيًا، ولكن مظهره كان لا يدعو إلى ذلك أبدًا، مرَّ يومان على رؤيته للحادثة، لم تطأ قدماه الشارع فهما أبدًا، طوال الوقت يجلس زائغ العينين شارد الفكر، حتى إن مها لاحظت ذلك، ولكنها لم تسأله ولم تبالِ.

مرت الأيام وكريم على نفس حالته، حتى جاء يوم ودقَّ جرس الباب، ذهبت مها لتفتحه، فقد كانت تستعد للذهاب إلى العيادة كما أن كريم كان نائمًا كعادته، فمنذ أن حدثَ ما حدث، وهو لا يخرج من الغرفة إلا لقضاء حاجته، أو للأكل والشرب نادرًا.

وجدت شرطيًا يقف أمامها، ومعه اثنان من العساكر، وعندما سألته عن سبب وجوده؛ أخبرها أنه مطلوب القبض على كريم. اندهشت جدًا من حديث الضابط، وبدأت تربط الأحداث ببعضها. فقبل أيام من الآن يتبدل حال زوجها ويصبح غريبَ الأطوار، لا يتحدث مع أحدٍ ولا يذهب إلى العمل، ولا يأكل إلا ما يبقيه حيًّا. والآن يحضر ضابط يخبرها أن زوجها مطلوب القبض عليه..؟ واضح أن هناك سرًا قد أخفاه عنها زوجها، ولابد أن تعرفه، استأذنت من الضابط أن توقظ زوجها وتخبره بالأمر، استسمحته أن يجلس حتى تبلغ زوجها بالأمر، وافق الضابط ولكنه أخبرها أن تحضره سريعًا.

دخلت مها بخطوات حذِرَة إلى غرفة كريم، وقفت بجوار الفراش لا تعلم ماذا تفعل، كيف تخبره وبماذا تخبره..؟ شعرت بتوتر مفاجئ، بالرغم من أنها تبغضه، إلا أن أبسط قواعد الإنسانية: التعاطف معه في هذا الموقف؛ حتى تعرف ماذا يخبئه عنها. همست في أذنه بتكرار اسمه، لم ينتبه فنكزته نكزة خفيفة في كتفه، التفت إليها وسألها ماذا تريد، أخبرته أن الشرطة تريده في أمرٍ ما لا تعلمه، وأنهم في انتظاره بالخارج. مجرد أن نطقت كلمة شرطة؛ حتى انتفض من على الفراش كمن لدغته عقرب، ظلَّ يردد أنه لم يفعل شيئًا، كان يصرخ بأعلى صوته، بأنه لم يقتله لم يقتله، ظلَّ يرددها حتى قاطع صراخه هجوم الضابط والعساكر غرفته

وقيدوه، حتى لا يفر هاربًا، صرخت بها من طريقتهم في القبض عليه، وكانت تحاول منعهم بكل الطرق. ولكنهم أخذوه رغمًا عنها بعد أن أزاحوها عن طريقهم. هرولت خلفهم وتوسلت إلى الضابط أن يخبرها إلى أي قسمٍ سيذهب به، أخبرها قسم م نصر أول.

تركتهم وركضت إلى غرفتها ترتدي ملابسها على عجل، وذهبت خلفهم فورًا وهي لا تعلم ماذا يحدث، أو ما يخبئه القدر لها.

* * *

كانت طلبات "الملكة نسرين" في بادئ الأمر بسيطة ومنطقية، كأن تطلب من حسام أن يركع مثلًا أو ينبح كالكلاب، أن يسير على أربعة كالحيوانات. ثم بدأت الطلبات تزداد شدة وغرابة، فمرة طلبت منه أن يظل طوال الليل راكعًا على ركبتيه، واضعًا يديه خلف رأسه وألا تغفل عيناه أبدًا، وأنها ستدخل في أي لحظة وإن وجدته قد غفلَ لثانية أو تحرك من مكانه؛ ستجعل ليلته سوداء، نفّذ الطلب وظلّ طوال الليل راكعًا على الأرض أمام كاميرا اللاب توب. مرت ساعة وهو صامد، ثم مرت الساعة الثانية وبدأ التعب والإرهاق يتسلل إلى جسده، وفقد تمامًا أعصاب يديه، ثم مرت ساعتان أُخرَيَيْن وبدأت ركبتاه في الارتعاش، وأعصابه بدأت في الانفلات منه، ولكنه تماسك بكل ما تبقى له من قوة. كلما فكّر لثانية أنها ستضيع من يديه لو تحرك أو غفل؛ يعتدل سريعًا في جلسته وينتبه ثانية، وكأنه قد شرب برميلًا من القهوة، كان الألم يزداد في ركبتيه بشكل بشع، حتى دخلت هي فجرًا على الفيسبوك وأرسلت له رسالة: «برافو كفاية عليك، قوم نام بقى».

سمع صوت رسالتها، فحاول أن ينهض ليقرأ ما كتبته، ولكن جيشًا كاملًا من النمل هجمَ عليه، واحتل قدميه بالكامل، وظلّ يلدغ فيهما، لم يستطع النهوض، تحامل على نفسه ونهض بصعوبة بالغة، واقترب من الشاشة وهو يعرج بقدميه من شدة الألم والتنميل، وقرأ ما كتبته سريعًا.

من قلة النوم؛ كتبها بيد مرتعشة، وعينٍ علىها غمامة: «أمرك يا هانم».

هرول على فراشه واستلقى بجسده، وحينها فقط شعر بكل الآلام تهجم عليه مرة واحدة، من كل مكان في جسده. فركبتاه وأسفل ظهره وكتفاه، جميعهم حطَّ بهم ألمٌ شديد، حتى إنه لم يستطع النهوض مرة أخرى ليتناول قرصًا مسكنًا، بالرغم أن حالته كانت تستدعي ذلك وبشكلٍ مُلِحّ، ولكنه وبالرغم من ذلك شعر أن الآلام كأنها دغدغة خفيفة في جسده، بدأ يشعر بلذة من هذه الآلام. نام وهو سعيد أن هذا الاختبار قد مرَّ بسلام، وقد اجتازه بنجاحٍ، حتى إنها قالت له: «برافو». كان

سعيدًا جدًا بهذه الكلمة، بل كان يطير فرحًا بها لو كان الأمر بيده لبروزها ووضعها على صدره، وسار بها بين الطرقات يخبر الناس أن ملكته الجديدة قالت له: «برافو». راح في نوم عميقٍ من شدة الألم والسعادة معًا.

استيقظ ظهرًا من شدة الإرهاق، فتح عينيه بصعوبة شديدة. فقد نام نومًا عميقًا لأول مرة منذ فترة طويلة، أول ما فعله بالطبع أن فتح "اللاب توب" ليرى هل ملكته أرسلت رسالة جديدة أم لا.

«مبسوطة منك أوي يا حسام».

دقَّ قلبه وتهللت أساريره ودمعت عيناه من الفرحة، هل فعلًا ما يراه حقيقيًا؛ أم من شدة الإرهاق الذي أصابه أمس..؟ دعك عينيه وأغلق الفيسبوك، ثم فتحه مرة أخرى ليتأكد، ولكنه وجد الرسالة مكتوبة بالفعل. نقر بأصابعه على لوحة المفاتيح بحركة مليئة بالسعادة والطاعة: «أنا خدامك وتحت أمرك يا هانم، حضرتك تؤمري وأنا أنفذ».

لم تردّ ربما لم تكن موجودة أو نائمة، أما هو فلم يحزن لعدم ردها، فرسالتها هذه تكفيه جدًا ليستقبل اليوم بحماس وسعادة. ارتدى ملابسه برشاقة وكأنه نسي كل آلام أمس، وقاد سيارته حتى وصل إلى الشركة، كان يبتسم لكل العاملين لديه بحماسٍ، وكأنه يوزع ابتسامات مجانية على الجميع. وقف في منتصف الشركة وقال بصوتٍ عالٍ: «النهارده ليكم كلكم مكافأة نص شهر». أشار لمدير الحاسابات بأن ينفّذ ما قال. كانت شخصية حسام في العمل مختلفة تمامًا عن حياته الخفية، والتي لا يعرفها أحد. لذلك كان حريصًا جدًا ويخشى أن يُفتضح أمره، فهو في العمل كان ذا شخصية حازمة حاسمة مثل اسمه، يقوم بعمله بإتقانٍ، حتى إن الشركة أصبحت من أكبر الشركات اسمًا في مصر، كما أن المصنع أصبح ثاني أكبر المصانع في تخصصه، من يرى حسام أثناء عمله؛ لن يصدق أبدًا ما يفعله في حياته الشخصية، حتى ولو رآه بأمّ عينه.

فرح الموظفون جدًا، وسمع عبارات المديح والشكر والدعوات وهو يعبر الطرقة ذاهبًا إلى مكتبه. فتح سريعًا "اللاب توب" خوفًا من أن ترسل رسالة فيتأخر على

الرد فيها. فتغضب عليه، وبالفعل ما كان يخشاه حدث، وجد ثلاث رسائل متتالية: «أنت فين..؟».

بعدها بدقيقة: «مش بترد ليه ياحيوان..؟».

بعدها بخمس دقائق: «وقعتك سودا لما تيجي».

شعر بسحابة سوداء تمر من فوق رأسه، تحولت سعادته كلها إلى رعبٍ وحزنٍ في آنٍ واحدٍ، لم تدم سعادته كثيرًا، يا تُرى ماذا ستفعل به..؟ كتب سريعًا وبحذرٍ: «آسف والله يا هانم، أنا دخلت الصبح لقيت حضرتك مش موجودة؛ فنزلت رحت شغلي».

لم يجد ردًا، فكتب: «أرجوكي سامحيني، أنا مقدرش على غضبك».

لحظات وأرسلت له: «انت بتروح الشغل من غير ماتقولي..؟ انت اتجننت..؟».

«آسف يا هانم.. مكنتش عارف إني المفروض أستأذن منك الأول».

«عشان كده بقول كلكم كدابين ومش خدامين حقيقيين».

«والله يا هانم أنا خادم حقيقي، أرجوكي اعملي فيا اللي حضرتك تشوفيه، بس متزعليش أرجوكي».

«تنزل حالا تروح البيت، وتفضل مستنيني لحد لما أرد عليك وأشوف هبقى هعمل فيك إيه».

«أمرك يا هانم».

خرج من غرفة مكتبه وهو يهرول وسط ذهول الموظفين من حالته، فمنذ دقائق معدودة كانت السعادة تكسو وجهه بالكامل، أما الآن فعلى ملامح وجهه ذهولٌ مختلط برعب، وكأنه تلقى خبر وفاة عزيز عليه، وصل إلى المنزل وفتح "اللاب توب" سريعًا وظلَّ منتظرًا حتى تأتي.

* * *

- 78 -

جلست مها على أريكة أمام غرفة ضابط المباحث، تنتظر نتيجة التحقيق وتنتظر أيضًا أن يخرج المحامي الذي وكلته للدفاع عن كريم، يخبرها ماذا يحدث، وبالأخص ماذا حدث بالداخل...؟ وما هي قضيته المتهم فيها من الأساس..؟ كانت تفكر بعبارة كريم التي رددها قبل أن يقبضوا عليه "لم أقتله"، من هذا الذي لم يقتله..؟

فُتِحَ باب الغرفة وخرج المحامي، فانتفضت من على الأريكة وهرولت إليه: «خير يا أ/شريف..؟».

«الحقيقة أ/كريم متَّهمٌ بقتل معتز صديقه».

شعرت مها بدوَّارٍ مفاجئ من أثر الصدمة، وهاجمها صداع عنيف ترنحت قليلًا بسببه. لم تستوعب حديث المحامي، هل معتز قُتِلَ..؟ متى..؟ هل كريم علم بما حدث..؟ لماذا لم يبلغها..؟ هل غضب لما حدث لهذه الدرجة فيقتله..؟ هل علم أنها برئية؛ لذلك لم يطلقها مثلًا، أو يخبرها..؟ أسئلة كلها منطقية ولكن بلا إجابات. بالرغم من صدمتها وعدم استيعابها ما حدث، ولكنها شعرت بسعادة غريبة، أن زوجها قتل صديق طفولته؛ لمجرد أنه علم بما حدث، وبالرغم أن معتز لم يؤذِها. أرادت لو ترى كريم أمامها الآن لتحضنه، هل يحبها لهذه الدرجة..؟ هل يغار عليها..؟ لماذا لم يُظهِر هذا من قبل..؟

شعرت بإحراجٍ لأنها تركت المحامي كثيرًا دون أن تنطق، ولكنه كان متفهِّمًا صدمتها ومشفقًا عليها، ظلَّ واقفًا حتى تسترد توازنها:

«هو فعلًا قتله..؟ هو اعترف..؟».

«لا طبعًا معترفش، هو بيقول إنه مقتلش معتز، ولكن في أكتر من بصمة في الشقة لأشخاص كتير، وكان كريم من ضمنهم، وكلهم تم استدعاؤهم بنفس التهمة».

أشخاص كثيرون..؟ من هؤلاء الأشخاص..؟ هل قام بتنفيذ الجريمة هو وأصدقاؤه مثلًا..؟ لعبت الأسئلة في بالها، فسألته بفضول كاد يقتلها: «حضرتك تعرف مين صاحب البصمات التانية».

«الأسماء كلها لستات، هو الراجل الوحيد تقريبًا اللي له بصمة في الشقة».

نساء..؟ هل كان يتفق مع معتز على مضاجعة النساء هو أيضًا..؟ هل اختلفا على شيءٍ معين؛ فتشاجرا حتى وصل الأمر إلى القتل..؟ مجرد وجود نساء في الحديث بينها وبين المحامي، كان كفيلًا بأن يجعلها تفقد جزءًا كبيرًا من تعاطفها مع كريم، بل اختفت سعادتها التي راودتها منذ قليل: «هو إيه الإجراء اللي المفروض يحصل دلوقتي..؟».

«المفروض إنه هيتحبس 4 أيام على ذمة التحقيق».

«أقدر أكلمه..؟».

«ده احتمال ضعيف».

فُتِحَ باب الغرفة مرة ثانية ليقطع حديثهما، خرج كريم بصحبة أحد العساكر وفي يده "أساور حديدية".

لم يكن كريم الذي تعرفه مها، كان شبحًا لإنسان عيناه زائغتان، لا يتكلم مع أحدٍ، ولم ينظر إليها أو يشعر بوجودها حتى: «كريم». نادت عليه عندما رأته، لم يرد، كان يسير بجوار العكسري كالأرنب، دون أن يعترض على أي شيء، كف عن الصراخ الذي انتابه في المنزل، ملامح وجهه بدت غريبة تثير الشك حوله.

هل هو فعلًا من قتله..؟ ولكن لماذا وهو لا يعلم ما حدث بينه وبين زوجته، هل ما رآه في منزله وفي غرفة نومه كان صحيحًا، أم أنه تخيل ذلك بعد أن فرغ من قتله..؟ لو كان فعلًا هو من قتله؛ فما الذي رآه في غرفته ليستدعي قتله..؟

رحل بعيدًا عن عينيها دون أن ينطق بحرف. التفتت إلى المحامي ووجّهت إليه سؤالًا: «المفروض إيه اللي اعمله دلوقتي..؟».

«حضرتك تروّحي بالسلامة. ولو في أي جديد أنا هكلمك».

شكرته على اهتمامه وصافحته ورحلت. رحلت وهي في حالة من الاندهاش.

- 79 -

جلس كريم أرضًا في غرفة الحجز وهو غير مستوعب لكل الأحداث التي يمر بها بهذه السرعة. كل ما كان يتذكره وجه معتز. تذكر أولًا كل مقابلاتهما سويًا. تذكر نظراته التي كانت تفضح إعجابه بهما. تذكر عندما كان يذهب إليه في منزله. تذكر سفرياتهما معًا. ضحكهما معًا. تناولهما للطعام معًا. ثم تذكر وجهه وهو جثة هامدة على فراشه والدماء من حوله. بكى وانتفض جسده من البكاء.

«وجّد الله يا أخ».

لم يرد عليه كريم. فقال: «بقولك وجّد الله أنت كافر..؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

«ملكش دعوة». نطقها بعد أن مسح عينيه من الدموع كالأطفال.

«لاااااا أقف عوج واتكلم عدل. طالما دخلت هنا؛ يبقى تعرف مين كبير القاعدة وتحترمه».

«ومين بقى كبير القاعدة ان شاء الله..؟». أجابه كريم باستهزاء.

«سلامة الشوف ياخويا».كانت هذه العبارة إشارة أنه الكبير. رمقه كريم بنظرة غاضبة. فهو لم يعتد أن يتحدث معه أحد بهذه الطريقة، فمن ناحية.. كل عملائه من المستوى الراقي، وقد اعتاد على طريقة حديث معينة، لم يعرف غيرها. ومن ناحية أخرى..كان يخشى دائمًا الدخول إلى أي قسم شرطة، فهو بطبعه من النوع الجبان الذي لا يحب أي مواجهات، وهو لأول مرة في حياته يدخل حجز في قسم شرطة، ويقابل هذه النوعية التي يراها الآن.

«إيه.. مش عاجبك الكلام ولّا إيه..؟». قالها الرجل وكأنه يريد الشجار وكأنه يتعمد استفزازه.

«سبني في حالي الله يخليك، أنا مش ناقصك». كانت هذه الجملة كفيلة بأن تجعل بعضًا من رجال الكبير يتقدمون في خطوات واثقة صوب كريم، وقفوا صفًا بالعرض أمامه وكأنهم ينتظرون إشارة من الكبير. ارتبك كريم من هذا التصرف، فهو أيضًا لم يصادف في حياته أي بلطجية. ولم يعترض حتى أحد طريقه في يوم.

واضح أنها ستكون ليلة لن ينساها كريم طيلة حياته.

* * *

شعر حسام بإرهاقٍ من طول المدة التي مكثها أمام اللاب توب، فهي لم تأتِ حتى الآن، وهو لم ينهض للحظة، حتى إنه لم يأكل أو يشرب منذ الصباح، أيضًا لم يرد قضاء حاجته خوفًا من أن تأتي وهو غير موجود، بالرغم أنه يمتلك لاب توب ويستطيع التجول به إلى أي مكان كيفما يشاء، ولكنه بسبب الارتباك والرعب لم يفكر في هذا الأمر، بل والأكثر من ذلك أنه لم يكن متحمسًا هذه المرة أن يبحث عن أقدام وأحذية النساء، حتى تأتي الملكة. فرعبه وحزنه أنه أغضبها منه أفقده أي حماسٍ لأن يفعل أي شيء، وعندما بدأ في التفكير أن يقوم باللاب توب، وبمجرد أن نهض وحمله معه حتى يدخل المطبخ، يعد شيئًا سريعًا يقدمه لمعدته المسكينة التي لم ترَ أي طعامٍ منذ أمس؛ حتى وجدها تفتح الإيميل الخاص بالياهو.

«انت فين..؟».

«أنا تحت رجليكي أهو يا هانم، مستني حضرتك من الصبح».

«انت عارف انت عملت إيه النهاردة».

«أيوة يا هانم، وأنا بقدم اعتذاري وأتمنى حضرتك تتكرمي وتسامحيني».

«من هنا ورايح مفيش أي تحركات إلا بإذني، فاهم..؟».

«فاهم، تحت أمرك يا سمو الملكة».

كانت "الملكة نسرين" تشعر بسعادة من ردود حسام، تلك التي تنُمّ عن خبرة في عالم الخدمة ليست بقليلة لذلك لم ترد أن تقسو عليه كثيرًا حتى لا تفقده، فهي بدأت تتعلق به بالفعل، وبدأت تعجب بطاعته العمياء لها، فهي الأخرى بحثت كثيرًا عن خادم حقيقي ولم تجد بعد انفصالها عن خادمها السابق.

«انت شغال فين..؟».

دخل في دوامة التردد مرة أخرى، هل يخبرها بالحقيقة أم لا..؟ ماذا لو كانت هي إحدى موظفاته بالشركة، أو حتى العاملات لديه بالمصنع..؟

«ممكن رجاء يا هانم..؟».

«خير..؟».

«محتاج بس أحكي لحضرتك حاجة صغيرة، وآسف لو هاخد من وقتك الثمين دقيقة».

«اخلص عايز تقول إيه..؟».

روى لها كل ما حدث معه من الملكة المزيفة المحتالة، وكيف أنه بدأ يفقد الثقة بمن يتحدث معهن عبر الإنترنت، وتوسل إليها أن تعفيه من الإجابات، حتى يراها وجهًا لوجه ويطمئن لها أكثر، كان مترددًا وهو يروى خشية أن يفقدها أو تغضب عليه بأنه يشبهها بملكة محتالة مزيفة، ولكنها ردت قائلة: «أنا متفهمة موقفك يا حسام، لأني تعرضت زيك بالظبط لمحتالين، عشان كده أنا هعفيك من الإجابات لحد ما اشوفك، وعلى العموم أنا مستريحالك ومش حاسة إنك مزيف أو نصاب زيهم».

ثم أرسلت وجه مبتسم لأول مرة منذ أن بدأت معه الحديث.

ارتاح كثيرًا لردّها عليه، وشعر بسعادة لأول مرة يشعر بها، فها هي تفهّمت موقفه ولم تتعصب لرأيها أو تتمسك به، فلو تمسكت به كان سيرضخ فورًا لأوامرها، ولكنه حمدَ الله وتنهد تنهيدة تنُمّ عن السعادة والرضا، وجدها ترسل رسالة أخرى:

«مش بترد ليه..؟ انت قمت..؟».

كتب سريعًا: «لا والله أبدًا.. بس من كتر السعادة والفرح مش عارف أقول إيه..!».

أرسلت له وجهًا آخر مبتسّما وأخبرته أنها قريبًا جدًا ستحدد له ميعاد لمقابلة حقيقية.

* * *

- 81 -

«انتوا عايزين مني إيه..؟». سألهم كريم وهو يرجع بجسده إلى الخلف، حتى التصق بالحائط من شدة الخوف.

«تكلم الكبير كويس يا ابن الـ...». قالها أحد الرجال الواقفين أمامه، صُدِمَ كريم من اللفظة التي تفوَّه به الرجل، شعر بغصة في قلبه، وحزنٍ شديدٍ يجتاح كل مشاعره، أراد أن يصرخ ليخرج من هذا المكان، أراد أن ينقذه أحدٌ من هؤلاء السفاحين، ولكن كانت كلها مجرد أمنيات. فكَّر أن ينحني مؤقتًا حتى تمر الرياح، لو ظلَّ يعاند هكذا مع هؤلاء الرجال: لن يتركوه في حاله، ولحسن الحظ أنه فكر بهذا الذكاء في هذا الوقت بالتحديد، ولو كان أطال معهم قليلًا في الحديث؛ لرأى منهم ما لم يرَه من قبل في حياته.

«أنا آسف، أنا بس متهم في قضية، أنا مظلوم فيها، عشان كده حاسس بتوتر». قالها ليستدر عطفهم ويتركوه.

«ياما في الحبس مظاليم». قالها أحد الرجال وهو يقهقه بطريقة مقززة ، ثم استطرد قائلًا: «قوم يلا حب على إيد الكبير؛ عشان يسامحك».

«إيه..؟». قالها بتكبُّرٍ واندهاش، فجزَّ الرجل على أسنانه: «إيه..! مسمعتش يا روح أمك..؟». تفوَّه بها الرجل وهو يجذب كريم من ياقته، بأنفاسه الكريهة المختلطة بالتبغ والبصل، وأشياء أخرى لم يتبينها كريم جيدًا. شعر أن الليلة لن تمر بسلام أبدًا، لذلك يجب أن يجاريهم ويطيعهم حتى تمر هذه الليلة الملعونة من وجهة نظره. اقترب من المسمى بالكبير وانحنى على يده وقبَّلها، شعر بإهانة كبيرة أراد أن يبكي، ولكنه تمالك نفسه بالكاد، خصوصًا من نظرات الكبير الواثقة، والتي جعلته يتمالك أعصابه حتى لا ينهار أمامهم؛ فيستغلونه أكثر وتزداد طلباتهم. بالفعل مجرد أن قبَّل يد الكبير تراجع الرجال إلى أماكنهم، ووضع الكبير ساقًا على ساق،

وكأنه بذلك يؤكد معنى كلمة الكبير، كما أنه الوحيد الذي كان جالسًا على الأريكة الخشبية اليتيمة، التي وضعت بغرفة الحجز.

جلس كريم في وضع القرفصاء، فالمكان كان شديد الضيق، والأنفاس المختلطة الكريهة جعلته يشعر بالغثيان وإفراغ كل ما في معدته. كما أن المكان كان مليء برائحة فضلات بشرية تثير الاشمئزاز. ظلَّ جالسًا ينتظر منقذًا يخرجه من هذه الورطة، تمنى في نفسه لو كان هو من أخبر الشرطة عن الحادثة، فلو أخبرهم من البداية؛ لكان الآن شاهدًا ليس أكثر. ولكن صمته ووجود بصماته على مقبض باب الشقة وعلى باب المطبخ والحمَّام أثار حوله الشبهات.

- 82 -

اعتذرت مها عن حضورها اليوم بالعيادة، وأخبرت أحمد مساعدها أن يعتذر للمرضى بالنيابة عنها، لم يكن لديها أي أعصاب لأن تعمل اليوم، ولم يكن لديها طاقة تستمع بها إلى شكوى المرضى. بل كانت في أشد الحاجة لمن يسمع شكواها هي. جلست في فراشها حزينة تشعر بالخوف، حزينة بسبب ما حدث مع كريم، وتذكرت شحوب وجهه وعينيه الزائغتين الخائفتين وهو خارج من غرفة التحقيقات، شاعرة بغصة في حلقها. فحتى لو لم تنسَ الخلافات الكثيرة التي كانت بينهما، وأيام المُر التي ذاقتها على يده؛ إلا أنها لم تنسَ أيضا العِشرة والسنين التي كانت بينهما، فهو مهما حدث زوجها، كما أنها تمتلك قلبًا رقيقًا بلون الحليب الصافي. أما خوفها فكان بسبب ما حدث مع معتز، فقد تخيلت جثته وهو ملقى فوق الفراش، ثم تذكرت آخر مرة كانت لديه بمنزله، وما فعله بها، وما فعلته هي أيضًا به. تذكرت ملمس جلده عندما اقتربت منه رغمًا عنه وقبَّلته، شعرت بقشعريرة تسري بجسدها كله عندما تذكرت، ظلت تنظر حولها في رعبٍ، فقد تخيلت أن شبحه قد يظهر لها في أي وقتٍ. هل فعلًا تظهر الأرواح بعد الموت..؟ هل فعلًا قد تظهر روحه وتحاول إخافتها، أو اغتصابها..؟ هل ما عجز عن فعله وهو

حي يستطيع فعله وهو ميت..؟ كانت تريد النوم، ولكن الخوف منعها وظلَّ يمنعها حتى انتصر النوم في النهاية.

رأته يتقدم نحوها، يجر قدميه المشلولتين خلفه جرًا، وكأنه سيخر راكعًا على الأرض من شدة الألم في أي لحظة، يقترب منها أكثر وقطرات الدم تخرج من كل مسام جسده، حتى وصل إليها، التصقت في جدار الحائط، وظلت تدفعه دفعًا بظهرها، متخيلة أنه سيتزحزح عن مكانه ويفسح لها الطريق لتهرب، ولكن لم يتحرك الجدار وظلَّ معتز يقترب أكثر حتى أصبح في واجهتها تمامًا، وبصعوبة شديدة رفع يديه واستند بها على الحائط بجوار رأسها من الجانبين. بدأت تلهث لهاثًا مسموعًا، كانت تعلم أنها تحلم، ولكنها لا تستطيع الخروج من الحلم، حاولت أن تنادي على أحدٍ، ولكن صوتها أبى أن يخرج من حنجرتها. سال خيطٌ من الدماء على طرفي فمه مبللًا ملابسه، شعرت أن روحها تُنتزع للأسفل، هبطت روحها في أعماق الأرض وصعدت مرة أخرى، وهو مازال واقفًا في مكانه، اقترب من فمها ليأخذ قُبلة، حاولت الصراخ مرة أخرى، ربما ينجدها أحدٌ هذه المرة. حاولت التملص منه، ولكن جسدها مقيد دون حبال، دون أي قيود. اشتمت رائحة صدى، غالبًا هي رائحة الدماء السائلة من فمه، بدأت عينه تنزف هي الأخرى، تلتها بثوان أنفه. كانت تصرخ من داخلها صراخًا لو سمعه أحد لأصيب بالصمم مدى الحياة، ولكن صوتها لا يخرج، حتى يده أرادت أن تدفعه بها عنه، ولكن شعرت بشللٍ تام في جسدها كاملًا. ظلت هكذا حتى حاول الحصول على قُبلة عنوة منها، فاستيقظت فورًا.

-83-

كانت السابعة صباحًا، وهي مازالت في الفترة ما بين اليقظة والمنام، حاولت تذكُّر ما حدث أمس، هل كان حقيقيًا أم كان مجرد جزءٍ من حُلمها..؟ أول مافعلته، التفتت بجوارها لتتأكد من عدم وجود كريم، وعندما تأكدت من عدم وجوده؛ أخذت نفسًا عميقًا وأيقنت أن ما حدث ليلة أمس، كان حقيقًا ولا يمُت للخيال أو

الأحلام بأي صلة. نهضت من الفراش في تكاسل شديد، فجسدها لم يعد يتحمل كل هذه الصدمات المتتالية، وكأنه يخبر أنه يريد مزيدًا من الراحة. لقد نامت فجرًا واستيقظت باكرًا، ولكنها تعمدت عدم الإنصات لما يردده جسدها، فهناك الكثير من الأعمال التي يجب أن تنجزها اليوم. فمن ناحية.. تريد أن تطمئن على زوجها، وأن تذهب له على الأقل: لتحضر له ما قد يحتاجه في الحجز. ومن ناحية أخرى.. تريد أن تتصل بأحمد المساعد؛ لتتابع ما حدث في العيادة، وهل هناك مواعيد مؤجلة لليوم من الأمس أم لا. وهل هناك مواعيد جديدة..؟

حاولت أن تسترد نشاط جسدها المريض بحمَّامٍ ساخنٍ؛ علها تجذب انتباهه ولو لليوم فقط. وبالفعل وافق جسدها على مضض، وكأنه يُشفق عليها مما هي فيه، وكأنه يرفض أن يكون همًا آخر من ضمن الهموم التي تحملها على عاتقها. ارتدت ملابسها على عجلٍ، وهي لا تدري لِمَ الاستعجال أصلًا، فالوقت مازال مبكرًا، وقد لا يقبلون في القسم أن ترى زوجها، فالقضية خطيرة والشكوك تحوم حوله، خصوصًا بعد ردود أفعاله الغريبة والمثيرة للشك، ولكن هي "فطرة" مجرد فطرة الإنسان في التعجل هي التي كانت متحكمة بها. دخلت غرفة الضابط النوبتجي بخطوات مترددة، بعد أن تلقت الأمر بالدخول من خلال الحارس الواقف أمام الغرفة.

«خير يا مدام..؟».

«صباح الخير يافندم». قالتها وهي تتصنع ابتسامة مزيفة، حتى تكسب تعاطف الضابط، أو ربما لتكسب وده.

«صباح النور، خير..؟».

بلعت ريقها بصعوبة، وفكرت لثوانٍ معدودة كيف تخبره أنها زوجة قاتل، وأن هذا القاتل محتجز لديه الآن بغرفة الحجز، بل وكيف ستخبره أنها تريد مقابلته لمعرفة ما يريده من احتياجات؛ حتى تحضرها له..؟ نعم الموقف غاية في الصعوبة، فهي وكريم وضعهما الاجتماعي لم يسمح لهما أبدًا أن يتواجدا في مثل هذه الأماكن

كمتهمين، بل ولا تحت أي مسمى. سيطرت على نفسها سريعًا وقالت بثقة مصطنعة أيضًا: «أنا زوجة كريم المتهم بقتل معتز، وهو وصل هنا بالليل ومحجوز عندكم». كانت تتكلم سريعًا، ربما لتتخلص من قسوة الكلام الذي تقوله على أذنيها، وربما لتثبت للضابط أنها لا تخشى شيئًا، وأن ما تقوله قد يحدث في أعرق وأكبر العائلات. رمقها الضابط من أعلى إلى أسفل، وقال ببرودٍ شديد: «عايزة إيه يعني».

«كنت محتاجة أقابله». كان ردها بشكل سريع ومفاجئ، وكأنها بدأت لتوّها في استخدام قدرتها النفسية على التعامل مع الناس، ولكن إن كانت هي طبيبة نفسية فهو ضابط: «بالسهولة دي..؟». قالها وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه. لاحقته قبل أن يستكمل حواره الممل والمعروف مسبقًا: «يافندم أنا بطلب منك الطلب ده عشم فيك وفي أخلاقك، اللي القسم كله بيحلف بيها، واتمنى تحقق لي رغبتي، وياريت لو حضرتك تفضل معانا في الأوضة عشان تطمن».

اعتدل الضابط في جلسته على المقعد، وكأن طاووسًا يجلس عليه وليس مجرد ضابط صغير، بعد العبارات التي تفوهت بها مبا مضطرة. قال في تأفف وكأنه ملّ الحديث معها: «أوك.. هم عشر دقايق بس».

- 84 -

بخطوات مترددة خائفة تقدمت مبا إلى الحجز، وبجوارها العسكري المكلّف بتوصيلها. مشاعر متناقضة سيطرت عليها.. ماذا ستقول له..؟ وصلت إلى باب الحجز وقلبها يدق بعنف من رهبة الموقف فهي المرة الأولى لها في هذا المكان. وقف العسكري خلف باب الحجز ونادى بصوت أجش: «كريبييم».

انتفض كريم من جلسته عند سماع اسمه، هرول إلى باب الحجز متخيلًا أنه تم الإفراج عنه. حشر رأسه داخل قضبان الباب ليرى الخارج بوضوح، ولكنه بالكاد رأى وجه العسكري: «نعم يافندم». قالها بصوتٍ فرحٍ، فأجابه الأخير: «في زيارة

عشانك يا متهم». أجابه العسكري وهو يفسح الطريق لمبا، لتقف في واجهة الباب. وقفت كالخرساء، تكلمت بالنيابة عنها دمعة سقطت من عينها: «مبا انا عايز اخرج من هنا، خرجيني يا مبا». سيطرت عليه مع هذه الكلمات حالة بكاء مستديرة.

«هاهاها.. مبا خرجيني من هنا يا مبا هاهاها». رددها رجلٌ من رجال الكبير بسخرية مستفزة. التفت إليه كريم وانتبه لوجودهم، وأنهم يسمعونه: فنظر سريعًا مرة أخرى لمبا وقال بصوتٍ هامسٍ: «أرجوكي يا مبا، أبوس إيدك اعملي أي حاجة، أنا مش هقدر أستحمل دقيقة كمان هنا».

«حاضر يا كريم، هعمل كل اللي أقدر عليه، أنا بس عايزة أعرف إيه اللي حصل..؟».

«والله ما قتلته يا مبا، أنا رحت لاقيته مقتول».

نظرت إليه مبا بحسرة ثم استطردت حديثها: «عمومًا أنا هروح لأستاذ شريف المحامي النهارده وأعرف منه كل حاجة».

«النهاردة..؟! يعني أنا لسه هاقعد هنا تاني..؟».

«إيه يا كريم.. انت فاكر نفسك ممسوك في جنحة ولا مخالفة..؟ دي جناية يا كريم جناية، جريمة قتل. اصبر لحد ما نشوف نقدر نعمل إيه..؟». أجابته بصوتٍ مرتفعٍ غاضبٍ بعد أن نفد صبرها.

«والله ما قتلته والله.. م.. ت.. هـ.. يا..». كانت كلماته تُفهَم بالكاد، وبدأ وصلة بكاء ثانية.

«اتفضلي يا مدام، الوقت خلص خلاص».

بمجرد أن سمع كريم حديث العسكري: ظنّ يصرخ بعلو صوته: «متسبنيش يا مبا». وظلّ يكررها بصوتٍ حزينٍ بالكِ.

«قول بسرعة انت محتاج إيه عشان أدخلهولك». سألته سريعًا وهي تزيح عن ذراعها يد العسكري، الذي حاول أن ينهي حديثهما بالقوة.

«مش عايز حاجة يا مها، عايز اخرج.. لا لا عايز عايز، أنا جعان عايز أكل يا مها».

استجابت مها للعسكري وخرجت معه بعد أن عرفت طلبات كريم. وقفت أمام العسكري تطلب منه أن تقابل الضابط مرة أخرى، تركها العسكري ودخل إلى الضابط ليأخذ منه الإذن.

دقيقة وخرج وهو يشير لها بعدم بالدخول..

«إيه..؟».

«الباشا معاه تليفون».

«هيخلّص إمتى..؟».

«الله أعلم».

«طب أستناه..؟».

«براحتك».

ظلت تنتظر لأكثر من نصف ساعة دون جدوى، فاقتربت من العسكري: مرة أخرى:«هو لسه مخلصش..؟».

«مش عارف».

«طب ممكن تشوفه..؟».

«هو لما يخلّص هيندہ لي».

تأففت مها من هذا الإهمال الغريب بالنسبة لها، وظلت تسير أمام غرفة الضابط ذهابًا وإيابًا حتى ملّت الانتظار؛ فغادرت قسم الشرطة بأكمله متوجهة إلى أقرب كافيه موجود بهذه المنطقة، فالوقت مازال مبكرًا على القيام بأي شيء.

* * *

عاد حسام لحياة الخدمة من جديد، وبدأ في تلقي الأوامر التي تنغص له حياته. فقد أصبح لا يستطيع الحياة بدون ملكة تأمره وتنهيه، وتصنع منهج حياته، الذي يجب عليه اتباعه بالأمر. فها هي الملكة نسرين تعيده لذكرياته السعيدة، التي عاشها مع ملكته الأولى "عزة"، خصوصًا بعد أن دعته لمنزلها ومارس معها الخدمة على أرض الواقع بعيدًا عن الحياة الافتراضية المتمثلة في الإنترنت. فبعد أيام من اختبارتها القاسية له، وتأكُّدها من كونه خادمًا حقيقيًا؛ أخبرته بنجاحه في جميع الاختبارات، وعليه الآن أن يخضع لاختبارات أخرى على الحقيقة. ففي أول زيارة لها كان يشعر ببعض الرهبة، خوفًا من إعادة تجربته القاسية مع النصابين الذين احتالوا عليه، ثم رويدًا رويدًا بدأ في الاطمئنان لها. طلبت منه في البداية تقديم فروض الولاء والطاعة؛ فشعر بغصة في قلبه، وكأنه شعور بالخيانة لحبيبته وملكة عمره "عزة"، ولكن مع نداءات احتياجاته النفسية المتكررة للعودة لهذه الحياة مرة أخرى؛ رضخ بالنهاية وقدَّم فروض الولاء والطاعة على مضض.

كانت طلباتها أشد شراسة من طلبات "عزة"، ومع كل طلب كان حسام في البداية يندهش، ثم يعتاد عليه كما اعتاد على طلبات عزة. كانت "نسرين" سادية من الدرجة الأولى، عكس عزة التي كانت تحب معاملة الملكات فقط، وضرب حسام ما هو إلا تأكُّد من خضوعه التام لها. أما نسرين فكان الضرب والألم الجسدي بالنسبة لها هو المقام الأول في معاملة خادمها.

أمرته أن يخلع جميع ملابسه، وأتت بشمعة وأشعلتها وظلت تقطر على جسده دموع الشمعة. انتفض حسام من الألم مع أولى نقاط الشمع، ولكن بعد دقائق تخدرت بعض الأماكن في جسده، وأصبح لا يشعر بها، فظلَّ ساكنًا بجسده خوفًا من غضبها إن تحرك أو ظهر على ملامحه الألم. خمس زيارات من حسام لنسرين في منزلها، قبل أن تأتي النهاية والفراق الأخير. فبعد الزيارة الأولى وموقعة الشمع تلك، جاءت الزيارة الثانية، تحمل بعضًا من المفاجآت الأخرى.. أمرته أن يلعق الأوساخ

الموجودة بأرضية المنزل وهو في وضع الكلب، وفي كل مرة كان يندهش من الطلب في بادئ الأمر. ثم يرضخ بالنهاية. في الزيارة الثالثة عندما حضر وجد فتاة وشابًا لديها؛ فاستأذن منها في الانصراف ظنًا منه أنهما ضيفان، فأمرته بعدم المغادرة. وأخبرته أنهما خادماها أيضًا، وأنها تريد تجربة الخدمة الجماعية لها.

«بصراحة أنا... ».

«انت إيه..؟ انطق..؟».

«أنا بغير، ومحبش حد يخدمك غيري».

تفوهت بلفظ نابي، ثم قالت: «انت فاكر نفسك جوزي ولا إيه..؟ انت حيالله السليف بتاعي».

«أنا عارف قيمة نفسي يا ستي، أنا مجرد جزمة في رجليكي الكريمة، بس يا ستي أنا معرفش مين دول».

«وانت مال أهلك بمين دول..؟».

«إحم.. أقصد أنا خايف يكونوا عارفيني واتفضح».

«انت هتتعوج يا حيوان ولا إيه..؟».

«لا والله يا هانم، لا عشت ولا كنت: لو اتعوجت على حضرتك، بس... ».

«مافيش بس، انجز على جوة عشان تخدمني معاهم ولاااا..؟».

«لا لا مافيش ولاا يا هانم، ده أنا ما صدقت لاقيتك، حاضر اللي تؤمري بيه».

كانت قبلها قد أحضرت لهم زيًا موحّدًا، ألقته بوجههم وأشارت إليهم بارتدائه. ذهبَ كل منهم في غرفة وارتدوا هذا الزيّ الغريب، ووقفوا أمامها صفًا لتلقي الأوامر. اختلفت مشاعر الشاب والفتاة عن مشاعر حسام حينذاك، فالشاب

والفتاة من "السليفز" المسالم الذي يرضى بأي شيء، إهانة، ضرب، ذُل، بصق في الفم، لعق قاذورات وفضلات بشرية.

أما هو فكانت تربيته مختلفة، فقد تربى على يد ملكة مختلفة عن الجميع، اختلطت مشاعره بالخوف والغثيان في نفس الوقت، الخوف من فقدانها، والغثيان من طلباتها الغريبة المقززة، ولكنه بالنهاية نفّذ كل أوامرها في تلك الليلة الغريبة.

كانت الزيارات الثلاث الأخيرة بعد هذه المرة، كلها تتصف بكل ما هو شاذ وغير مألوف، فكانت طلباتها كلها جنسية في المقام الأول، ولكنها جنسية شاذة لا يجوز ذكرها بأي حالٍ.

حتى حان وقت الفراق...

* * *

فرغت مها من تناول كوب الشاي، في هذا الكافيه الوحيد المفتوح في هذا الوقت المبكر، خرجت إلى الشارع وهي تنظر إلى كل شيء بعين زائغة. ماذا تفعل الآن..؟ هل تذهب إلى المحامي..؟ أم إلى العيادة..؟ أم تتجول في الشوارع وتشاهد المحلات؛ حتى يمر الوقت قليلًا..؟ أخرجت من حقيبتها هاتفها المحمول، اتصلت بـ أ/ شريف المحامي، وعرفت من خلاله أنه في محكمة "شمال الجيزة" لحضور جلسة مرافعة له، وأخبرها أن أمامها ساعة على بدء وانتهاء المرافعة.

وبعد ما يقرب من ساعة بحثت عن مكان بالقرب من المحكمة لتركن سيارتها بها وترجلت حتى المحكمة.

لأول مرة تذهب إلى محكمة، كما كان الحال مع قسم الشرطة.

مبنى ضخم.. في مدخله ازدحام شديد، أشخاص ليس لهم حصر، رجال يرتدون بذلًا كاملة، وأشخاص يرتدون الزي الأبيض وتجمعهم أساور حديدية تربطهم ببعض، ونساء باكيات يتشحن بالسواد يبكين، ورجل بسيط نحيف يحمل في يديه صينية ممتلئة بأكواب من الشاي الساخن. شعرت بدوَّارٍ خفيف حتى اقتربت من صاحب الصينية وأشارت له ليتوقف.

«من فضلك هو فين غرفة المحامين..؟».

«حضرتك عايزة مين يا هانم..؟».

«أستاذ شريف الدسوقي».

«أيوة يا هانم. هو لسه داخل الأوضة حالًا».

أشار لها بيده على مكان الغرفة وأضاف: «حضرتك تدخلي يمين في يمين، وبعدين شمال، وخدي يمين تاني، هتلاقي طرقة طويلة، الأوضة في آخر الطرقة دي».

مجرد وصف الغرفة لها؛ زاد من الدوار الذي داهمها منذ قليل. شكرته بصوتٍ هامسٍ ثم اتبعت الخريطة التي رسمها لها. دخلت الغرفة وألقت نظرة سريعة عليها وعلى الوجوه الكثيرة التي تجلس بها، حتى وقعَ نظرها عليه. هرولت نحوه كطفلة وجدت والدها أخيرًا: «أستاذ شريف أخيرًا لقيت حضرتك».

منحها ابتسامة عريضة وقال لها: «أنا آسف يا مدام مها، عارف إن المحكمة شبه مغارة على بابا، بس هنعمل إيه بقى..؟ أكل العيش مر».

ضحك بصوت مرتفع بعدما فرغ، ثم انتبه فقال: «اتفضلي اقعدي يا مدام مها».

«هو احنا هنتكلم هنا..؟».

«تحبي حضرتك نتكلم فين..؟».

«لو حضرتك رايح أي مكان: ممكن أوصَّلَك بالعربية، ونتكلم في الطريق».

«طب عملتي فيَّا خير والله، أنا طالع على محكمة عابدين: عشان أخد صورة ضوئية لقضية ليا هناك، تعالي نتكلم في الطريق».

أغلقت مها زجاج العربية الكامل، وأدارت المكيف وأخذت نفسًا عميقًا....

«في جديد يا أ/ شريف..؟».

«لسه مفيش أي جديد يا هانم، الموضوع كله حصل امبارح، هيكون إيه الجديد بس اللي حصل..؟».

«يعني هنفضل كده كتير..؟».

«متقلقيش.. أنا حبايبي في القسم كتير، وهعرف النهاردة بالليل إيه اللي حصل بالظبط».

«بس كريم قال إنه مقتلهوش».

« لو بالكلام يا مدام؛ يبقى ناس كتير هتخرج من السجن وناس تانية كتير هتدخل فيه، المهم الإثباتات».

«طب حضرتك إيه المفروض يحصل دلوقت..؟».

أخرج هاتفه: «بصي أنا أعرف ناس من المعمل الجنائي اللي شغالين في القضية دي ،هاكلم حد فيهم ممكن يساعدنا في فهم أي حاجة».

- .....

- ألو إيه يا عمرو باشا، إزيك..؟

- .....

- أنا الحمد لله كويس، كنت عايزك في مصلحة كده.

- .....

- ربنا يخليك، ده عشمي فيك بردو، قضية قتل معتز اللي أنت ماسكها، كنت عايز أعرف فيها شوية حاجات كده.

- .....

- بص يا سيدي.. عايز أعرف إيه البصمات الموجودة في المكان، وهل فيه أي حاجة تانية غريبة عندكم لقتوها مثلا..؟ يعني اللي تقدر تقولي عليه قوله يا حبيبي، أنا عارفك صاحب واجب واللي في قلبك على لسانك.. ها ها ها.

- .....

- آه.

- .....

- أيوة.

- .....

- مممممم.

- .....

- لاااا عيب عليك يا حبيبي، ولا كلمتك ولا أعرفك حتى، ها ها ها ها.. يا رجل المواقف الصعبة.

- .....

- لا يا حبيبي الأمر لله، شكرًا جدًا يا عمرو، هكلمك قريب عشان نتقابل.

- .....

- الله يسلمك .. في رعاية الله.

بمجرد أن أغلق الهاتف؛ حتى انطلقت مها في الأسئلة كالصاروخ: «قالك إيه..؟ بصمات مين..؟ إيه الغريب اللي لقاه..؟ هو كريم قتل معتز فعلًا..؟ .....؟ .....؟ .....؟ .....؟».

«حيلك حيلك يا مدام، اصبري عليا شوية هقولك على كل حاجة، بصي يا ستي.....».

* * *

كانت نسرين تعامل حسام على أنه خادم طوال الوقت، دون الدخول في أعماق نفسه أو معرفة احتياجاته الأخرى، حتى إنه زهد الحياة معها. لن ينكر أبدًا أنه تركها بصعوبة، فحياته امتلأت قليلًا بعد الفراغ الهائل الذي تركته عزة، إلا أنه كان كالصائم الذي يحلم طوال النهار بقطرة ماء واحدة. وبمجرد أن يشرب كوب ماء؛ يشعر بامتلاء، ويصبح من المستحيل أن يرتشف قطرة أخرى دون التفكر في صيام اليوم التالي، وكيف سيكون دون مياه. هو فقط كان يشعر في اللحظة التي يحياها الآن: "نسرين ليست كعزة". بل أي امرأة لن تكون كعزة. تركها ورحل، تركها دون أن يتفوه بكلمة، فآخر ما فعلته نسرين معه كان كما يقولون: "القشة التي قسمت ظهر البعير". فقد أهانته كرجلٍ وليس كخادم، فحسام في حياته العادية لم يقبل أو يسمح بأي إهانة من أحدٍ قط، أما ما فعلته نسرين في هذا اليوم، فقد كان دربًا من الجنون. دخلت نسرين الشركة وهي تضرب الأرض بكعبٍ عالٍ رفيع، يعزف سمفونية غاضبة، حاولت السكرتيرة منعها من الدخول لحسام دون إذن، ولكنها دفعتها بكل ما تملك من قوة، حتى إنها ارتطمت بالحائط . نهض حسام من على كرسيه وهو ينتفض كمن لدغته عقرب سام على حين غرة، ربما استغرابًا لرؤيتها، وربما خوفًا مما تنوي فعله، بالفعل ما كان يخشاه قد حدث، أخذت تهره وظلّ صوتها يعلو حتى تجمّع الموظفون خلف الباب، يحاولون معرفة ما يحدث بالداخل. كانت نسرين في هذا اليوم غريبة الأطوار، يبدو أنها أحبت حسام، وحاولت السيطرة عليه أكثر فأكثر، ولكن غباءها خيَّل لها أنها بهذه الأفعال الحمقاء؛ سوف تأسره. لم تعرف أن حياته العامة خطٌ أحمر، فقد علمته عزة ألا يتنازل عن كرامته أمام الناس، مهما حدث. فكل ما كان يحدث بينهما كان بينهما فقط، لم تشهد عليهما سوى حوائط المنزل وأرضياته، حتى العاملين بالفيلا لم يعلموا حقيقة العلاقة بين عزة وحسام، فقط هو ابن أعز صديقاتها، وهي تنفِّذ وصيَّتها تجاهه، حتى إنهم كانوا يتعاملون معه بنفس المنطق.

خرج حسام عن شعوره، خرج بعد إهانات متعددة منها أمام خادمها بمنزلها، بعد طلبات متكررة منها لم يعتدها أبدًا مع عزة، وبالأخص أمرها له بأن يشاركه خدمتها ذلك الشاب وتلك الفتاة في إحدى المرات.

فكم مرة أخبرها أنه مصاب بالغيرة المرضية، ولا يريد أن يشاركه خدمتها أي إنسانٍ على الأرض، ولكنها لم تعطِ لاحتياجاته أو رغباته أي اهتمام. كان يصبر ويصبر، وكان سيظلّ صابرًا لولا ما فعلته الآن من جنون حقيقي. فها هي تقف أمام موظفيه بالشركة، لتهينه دون مراعاة لأي شيء، مجرد سيطرة فقط، وبالرغم من أنه أخبرها ألا تأتي أبدًا لمحل عمله مهما كانت الأسباب، وشرح لها طبيعة عمله وحرصه الشديد ألا يعلم أحدٌ بحياته الشخصية، وأنه أمام الجميع مختلف تمامًا عمَّا تراه هي؛ إلا أنها لم تسمع، لم تنصت، لم تهتم، لم تعِ.

لأول مرة يبهرها أمام الجميع، لأول مرة يخرج عن طوعها، لأول مرة يخرج عن صمته، لأول مرة يتحول إلى كلبٍ ضالٍ، ليس له صاحب وليس كما كان من قبل، كلب وفيّ تمت تربيته في قصور.

لم يشعر بنفسه إلا والموظفون يحاولون إفاقته.

وقفت فتاة من الموظفات بجواره، تحمل بيديها كوب ماء، وموظف آخر يحاول فك رابطة عنقه، في محاولة لضخ مزيد من الهواء داخل رئتيه، بينما يقف موظف ثالث بجوار الشباك يفتحه على مصرعيه، بعد أن أطفأ المكيف، ليسمح لهواء الطبيعة أن يزور الغرفة. أما الأصوات التي تأتي من بعيد، فهي أصوات بعض أفراد الأمن وهم يدفعون نسرين بالقوة خارج الشركة، بعد أن أمرهم حسام بذلك.

«ماشي يا حسام الكلب، أنا هوريك مين الملكة نسرين».

كانت تصرخ بهذه الجملة وهي غاضبة، تسير مع الأمن تحت تهديد سلاحهم.

«شوفوا شغلكم». صرخ بها حسام ناهرًا الموظفين، بعد أن استردَّ كامل وعيه، وهو يحاول ضبط رابطة عنقه. خرج الموظفون واحدًا تلو الآخر، وجلس حسام وحيدًا

لبضع دقائق، قبل أن يغادر الشركة بأكملها، بعد أن شرح للموظفين كذبًا أن "نسرين" ما هي إلا مجنونة تحاول التقرب منه رغمًا عنه، للتزوج به ولكنه يأبى.

كان الموظفون يومنون برؤسهم، ربما تصديقًا، وربما تكذيبًا، ولكنه اقتنع أنهم صدقوه تمامًا، أو ربما أقنع نفسه بذلك؛ حتى يرضي ضميره.

قاد سيارته كالمجنون حتى وصل إلى فيلته في المقطم، فهو لا يزورها إلا في حالتين: إما وهو في أسعد حالاته. أو في أسوأها. وها هو الآن في أسوأ حالاته النفسية والعصبية، بل والجسدية أيضًا.

توجه مباشرة إلى غرفة عزة، جلس على فراشها وهو يراها مستلقية كالملكات تبتسم له: «مالك يا حسام..؟».

«تعبت يا ستي، تعبت».

«من إيه يا حسام..؟».

«تعبت من بُعدك، ومن لعب الناس بيا، محدش قادر يفهمني زي ما كنتي بتفهميني».

«اصبر يا حسام».

«مبقتش قادر خلاص يا ملكة حياتي».

«بتحبني يا حسام؟».

«بحبك..؟! ده أنا بعشق التراب اللي بتدوسي عليه، أنا كنت عايش على رضاكي، ضحكتك كانت بترد فيا الروح، أوامرك كانت بتحسسني اني عايش، انتِ قلبتي حياتي، الله يسامحك».

كان يتحسس فراشها وهو خاوٍ على عروشه، كان يعلم أنه يحدّث نفسه وأن عزة أصبحت ملكة خياله فقط. وضع رأسه في منتصف الفراش وظلّ يبكي كالأطفال: «ارجعيلي بقى يا ستي أنا تعبت.. تعبت».

* * *

أمسك أ/ شريف مفكرته الصغيرة، التي دوّن فيها إجابات المكالمة، وظلّ يفكر قليلًا، كان القلق يشتت أفكار مها.

«طمني أرجوك يا أ/شريف».

«بصي.. هو ببقول إن في بصمات كتير، بس أحدهم كانت لكريم، وإن البصمات التانية كلها لستات تم الوصول ليهم».

«والستات دول اتقبض عليهم..؟».

«أيوة.. وبيتم التحقيق معاهم هما كمان، واتقبض عليهم قبل ما يتقبض على كريم».

«إيه تاني».

لقوا ورقة مكتوب فيها أسماء ستات، ومتعلم جنب أسامهم بعلامة صح، ما عادا اتنين في الآخر مش متعلم عليهم.

«معناها إيه العلامات دي..؟».

«مش عارف لسه».

«إيه تاني..؟».

«لقوا شريحة تليفون تحت مخدته، وتم تفريغ كل محتوياتها وأغلبها لأسماء رجالة».

«غريبة دي».

«وكمان لقوا عليها رسايل مبعوتة للرجالة دول».

«أنا مبقتش فاهمة حاجة».

«اصبري يا مدام مها، كل حاجة هتبان متقلقيش، ادخلي الشارع الجاي شمال المحكمة في أخره».

حاضر».

قادت مها السيارة وهي مشتتة الذهن، تفكر في منة فكرة في الوقت الواحد، وتهجم عليها الأفكار من هنا وهناك، حتى وصلت أخيرًا أمام المحكمة: «شكرًا يا مدام على التوصيلة دي، أنا كان زماني لسه في نص الطريق». قالها وهو يضحك.

«المفروض إيه إللي يحصل دلوقي..؟». سألته متجاهله مزاحه.

«تروحي تشوفي حالك، وتصبري لحد ما نشوف إيه الجديد».

«طب كريم كان عايز أكل وشوية حاجات كده يا أ/ شريف».

«هاتي اللي انتي عايزاه وأنا هدخلهوله، متقلقيش».

«أنا مش عارفة أشكرك ازاي يا فندم والله».

«يا ستي لا شكر على واجب، ربنا يطمنك عليه.. إن شاء الله».

- 89 -

شعر بشيء غريب يسير على ذراعه، فاقترب بنظره أكثر؛ حتى قام منتفضًا من مكانه، وهو يصرخ عندما رأى هذا الشيء بوضوح: «صرصار.. صرصار».

قبقه الجالسون من منظره، وهو يصرخ ويقول كلمة صرصار تلك.

«إيه يا أخينا انت ..! عمرك ما شفت صرصار..؟».

«أصل أنا عندي فوبيا من الحشرات».

«عندك إيه يا خويا..؟ صوبيا..؟».

«أقصد يعني بخاف منهم جدًا».

«طب اترزع بقى وبطّل دوشة».

«حاضر». قالها بصوتٍ ذليل، انتفض مرة أخرى من جلسته ولكن هذه المرة بعد أن سمع اسمه يتردد خلف باب الحجز . هرول إلى الباب وهو يلبي النداء.

«اخرج يا متهم.. الباشا عايزك».

«متعرفش عايزني في إيه..؟».

«معرفش».

«حاضر».

سار كريم بجوار العسكري وهو مقيّد اليدين، يدعو الله داخليًا أن يخرجه من هذه المصيبة التي أحلت به. وقف أمام الضابط المكلف بالتحقيق معه، ونظره مثبت على الأرض خشية منه. أمره الضابط بالجلوس على المقعد، فنفذ كريم أمره.. وبدأ التحقيق للمرة الثانية...

* * *

لم يشعر حسام بنفسه كم ساعة انفصل فيها عن الحياة، فقد غطَّ في نوم عميق على فراش عزة، الذي ولأول مرة ينام عليه. فقد كان نومه الدائم إما في غرفته أو أرضًا تحت فراشها، ولكن شدة إرهاقه وما حدث معه جعله لم يشعر بنفسه إلا بعد أن استيقظ. قام متكاسلًا من الفراش، بعد أن تذكر كل ما حدث. فدائمًا أول ما يتذكره الإنسان فور استيقاظه كل ما لديه من كوارث ومصائب، عبس بوجهه ووضع كفيه على رأسه محاولًا الصمود.

نهض على مضض من الفراش واتجه صوب دولابها، فتحه ووقف أمام ملابسها بابتسامة مختلطة بالدموع، كان يلمسهم برهبة وعشق. اقترب بأنفه منهم وظلَّ يستنشق عبير رائحتهم، مع كل استنشاقة كان يغمض عينيه ويتذكر موقف ما مرَّ بينهما.

الغريب في علاقتهما أنها كانت تحوي كل أنواع العلاقات بداخلها، فقد تراهما صديقين عزيزين، فيلقبّها حسام " زوزا" أو "زيزي" ، كنوع من التدليل، دون تذمر منها. وأحيانًا يبرز الجانب الأمومي لدى عزة، والذي حُرِمَت منه طيلة حياتها، فتجدها تخاف عليه كخوف القطة على أبنائها عندما يهاجمهم غريب، تكشف عن أنيابها ومخالبها وتفترس المُهاجم بعنفٍ شديد. وطبعًا علاقة الخادم المطيع، هي التي كانت تسيطر على علاقتهما طوال الوقت. أما العلاقات الحميمية لم تطرق إلى حياتهما إلا مرة وحيدة، وكانت على استحياء بعد ضعف من كليهما. وعدم تحكُّم حسام في مشاعره، خصوصًا أنه كان وقتها في مراهقته، وفي هذا الوقت بالتحديد هناك مشاعر لا يمكن ترويضها، ولكن لم تكن العلاقة كاملة، بل كانت مقدمات فقط لما يسبق أي علاقة حميمية، حتى استطاعت عزة أن تسيطر على مشاعر حسام التي فقد التحكم في لجامها. وصباح اليوم التالي لهذه الليلة تصرفا وكأن شيئًا لم يكن، ومن هذه الليلة لم تصل علاقتهما أبدًا إلى هذا النوع من المشاعر.

رغم أن نسرين كانت تشعر بامتلاكها لشيءٍ ثمين، إلا أنها كانت لا تتمتع بالذكاء الكافي، ليجعلها تظل محتفظة بحسام لفترة طويلة. فهي لم تفهم حسام كما فهمته

عزة، أو ربما عزة هي من صنعت حسام وشكلت حالته النفسية وحددت احتياجاته كما تريد هي.

ظلَّ واقفًا أمام ملابسها يتحسسها ويستنشقها، ثم جلس أرضًا يفكر بحاله وما وصل إليه.

لا يستطيع نسيان عزة، ولا يملك الشجاعة بأن يقيم علاقة طبيعية بفتاة عادية، ولم يجد مثل عزة حتى الآن. دُمِّرت حياته، وأصبح مسخًا لا ملامح ثابتة له. فلا هو "سليف" حقيقي، يتمتع بخدمة ملكته، ولا هو رجل طبيعي، يتمتع بعلاقة عادية مع محبوبته.. مجرد شبح إنسان، أو مسخ .

رنَّ جرس هاتفه فلم يجب، فالرنة كانت مميزة لأنه خصصها لرقم "نسرين".. ظلَّ الهاتف يرن كثيرًا حتى فتح على مضض.

«مبتردش ليه يا زفت..؟».

«أولا متقوليش يا زفت، أنا اسمي حسام، ولا أقولك خليها أ/حسام».

ضحكة عصبية أصدرتها نسرين بعد سماع إجابته عليها.

«عايزة إيه..؟».

«انت حيوان».

«بقولك يا نسرين متغلطليش أحسن لك».

«نسرين..؟ اسمي الملكة نسرين يا حيوان».

«أه ده كان زمان يا حبيبتي».

«انت متفضل بتاعي غصب عنك».

«لا مش غصب عني، أنا كنت بتاعك بمزاجي وخلاص خلصت».

«حسام.. انت عارف كويس إني بحبك وإنك بتاعي». قالتها بصوت دافئ، وبدأت التقهقر للخلف خشية فقدانه.

«قولتلك خِلصت يا نسرين».

«حسام تعالى بس ونتفاهم هنا. بلاش الكلام في التليفون».

«بيتك ده مش هعتّبه تاني، وعلى فكرة بقى متتكلميش هنا تاني لأني مش هرد عليكي، وهبلّك رقمك، وهبلّك الأكونت بتاعك من على الفيسبوك».

«يا حسام يا حبيبي ده سوء تفاهم اللي حصل، انت مش متخيل اني اترفزت أد إيه لما لقيتك مش بترد عليا، وجيت لك على الشركة زي المجنونة».

«نسرين قلتلك هي خلصت كده خلاص، من فضلك متتعبنيش بقى».

«حسام انت اتغيرت أوي، انت مش حسام اللي انا عرفاه». قالتها بصوتٍ حزينٍ، فأجاب:

«عشان ياما قلتلك حياتي الحقيقية خط أحمر واني مش بقبل الإهانة قُدّام الناس، ياما حاولت افهّمك حاجات كتير واني كنتي حمارة مش بتفهمي». تعمّد إهانتها الأخيرة تلك حتى يتخلص منها للأبد.

«حمارة..؟ انت اللي... و... و...». ظلت تردد كل أنواع السباب المعروفة والغير معروفة؛ حتى أغلق الهاتف في وجهها وألقاه بعيدًا عنه، ثم ألقى نظرة أخيرة على ملابس عزة، وعلى أحذيتها وطبغ قُبلة علهم ونهض.

دخل غرفته وفتح حاسوبه، وأول ما فعله عند دخول حسابه على الفيسبوك أن قام بحظر اسم "نسرين" بشكل نهائي من على حسابه.

تجول عبر حسابه بغير نفس، فما فعلته نسرين معه كان كفيلًا بأن يجعله كارهًا لكل شيء حوله، حتى ما يعشقه: "حياة المازوخية".

سمع رنين الهاتف مرة أخرى، نفس صوت الرنين السابق: «عايزة إيه يا نسرين تاني..؟».

«عايزاك تسمعني يا حسام، لازم نتكلم مع بعض».

«مفيش بينا كلام تاني».

«أرجوك يا حسام، أرجوك».

«أرجوك..؟» سألها حسام مندهشًا.

«أيوة أرجوك، وأتوسل إليك كمان، أنا تعبانة من غيرك يا حسام، لازم تيجي ونتكلم».

تأثر حسام بحديثها، ولكن أجابها بلامبالاة: «ربنا يسهل».

«يعني هشوفك يا حسام..؟».

«قلت ربنا يسهل يا نسرين».

أغلق الهاتف وهو مصدوم من الحوار الذي دار بينهما، هل هذه هي نسرين التي كانت تأمره وتنهيه..؟ هل تقبّلت طريقته في الحوار هكذا وكأنه الطبيعي..؟ هل تدبّر له مكيدة ما للإيقاع به والانتقام منه..؟

بذهنٍ مشتّت ظل يقلب في صفحات الفيسبوك، محاولًا إلهاء نفسه عن ما يدور بخلده، حتى وجد ملكة أخرى تكتب على صفحتها:

«انبحوا يا كلاب، واللي هينبح أكتر هكلمه خاص».

وجدت تعليقات كثيرة ومختلفة، أغلبها عبارة عن: "هو هو هو هو هو هو هو".

وتعليق لشخص قد كتبَ: "حرام عليكم اللي بتعملوه ده، انتم ربنا هيخسف بيكم الأرض إن شاء الله".

وآخر وضع إعلانًا لصفحته الدعائية، التي لا تمت للموضوع بأي صلة، قريبة كانت أو بعيدة.

مطّ شفتيه ووضع علامة إعجاب على البوست، ثم كتب وكأنه مجبر: "هو هو هو هو".

دقائق ووجد رسالة جديدة على "الإنبوكس" الخاص به:

«سلام عليكم».

«وعليكم السلام».

«على فكرة.. البوست اللي انت عملت عليه لايك دلوقتي، وكتبت كومنت.. ده لواد.. ». وذكر لفظًا نابيًا، كتعريفٍ للذكر الذي يتشبه بالنساء. أخذ نفسًا عميقًا ثم كتب: «وانت عرفت منين..؟».

كان الشخص الذي يتكلم معه، قد أطلق على نفسه اسم "عبد البنات" على الفيسبوك: «أنا عارف الموضوع ده من بدري، وعلى فكرة بقى.. ده واد سالب كمان».

«سالب ازاي يعني..؟».

«إيه يا أبو الكباتن.. انت مش عايش معانا في الدنيا ولا إيه..؟».

«معلش أنا معرفش فعلًا يعني إيه الكلمة دي..؟».

«يعني واد ... ».وذكر نفس اللفظ مرة أخرى.

«طب وبيعمل كده ليه..؟».

«بيصطاد الشباب اللي ممكن يبقوا موجب يا أخ، ويعمل معاهم علاقة».

«إيه القرف ده..؟».

«أه والله زي مابقولك كده، ولو عايز تتأكد ادخل اتكلم معاه وعرفه إنك "توب" وروح قابله وانت تعرف بنفسك الحقيقة المرة».

"توب" رددها حسام باستغراب في نفسه، ولم يرد عليه وصمت، ربما لعدم فهمه لهذه المصطلحات، فاستطرد الولد حديثه مرة أخرى بعد صمت حسام: «معلش يا صاحبي أنا عارف ان الموضوع لَمّ أوي، وبقى تدخله عيال سيس واحنا في الأخر اللي بندفع التمن».

شعر حسام أنه من غير اللائق عدم الرد عليه مرة أخرى، فأجابه على مضض: «معلش».

«إيه أنت مالك واخد الدنيا على صدرك كده ليه..؟».

«لا أبدًا مافيش».

«انت خدمت على الحقيقة..؟».

«أيوة».

تلقى الشاب إجابة حسام كصفعة على وجهه، فواضح أنه ولأول مرة يجد شخصًا خدم في الحقيقة: «انت بتقول إيه..؟ انت بتتكلم بجد..؟».

«أيوة والله بتكلم بجد».

«مين..؟ وفين..؟ وازاي..؟ وامتى..؟».

«معلش أنا مش قادر اتكلم دلوقتي».

«لاااا أنا مش هسيبك إلا لما تقولي، ده انا بقالي خمس سنين في الزفت الفيسبوك ده، ومش لاقي ملكة حقيقية أخدمها، وحياة أبوك يا شيخ تقولي متسبنيش كده».

شعر حسام بامتعاض، فاعتذر لهذا الشاب ووعده أنه سوف يخبره، ولكن في وقتٍ آخر لأن لديه موعدًا عاجلًا الآن ويجب أن يرحل. هرول حسام على الحمَّام، وضع رأسه تحت صنبور الماء وغمره، ظنّ يحرك رأسه تحت الصنبور حتى تهدأ جوانحه. توضأ حسام بعدها وفرش سجادة الصلاة على الأرض، ثم وبصوت عالٍ وحادٍ، كأنه يقصد طرد الشيطان من حياته قال: "الله أكبر"...

* * *

مرت الأيام ثقيلة على مها، وهي وحيدة لا أحد يقف بجوارها، حتى أهلها، كل ما فعلوه أنهم طلبوا منها أن تنفصل عن زوجها، "القاتل" كما نعتوه. ضاقت بها الحياة، حتى اتصل بها المحامي ليخبرها بأمرٍ ما، وطلب منها الحضور إلى مكتبه.

بالفعل ذهبت إليه، آملة أن تكون هناك أخبار سارة لديه، حول قضية زوجها.

وكما توقعت بالفعل، وجدت ما يبهج قلبها، ويشفي فؤادها . فبمجرد أن دخلت عليه مكتبه حتى وجدته ينهض مبتسمًا ويصافحها بحرارة . «خير يا ا/ شريف في جديد ؟.»

«خير جدًا إن شاء الله . ا/ كريم شبه خرج من القضية دى زي الشعرة من العجينة» . حدقت مها بعينيها مندهشة من إجابة المحامى وسألته فرحة «إيه اللى حصل بالظبط ؟ أرجوك احكيلي بسرعة »

«أبدًا ياستي، المعمل الجنائي عمل مسح للشقة تانى ولقوا كاميرا خفية كان مخبيها معتز في مكان مش باين ، فضّوها وشافوا الجريمة كلها وهي بتُرتكَب من الفاعل الأصلي، ومش كريم»

«سألته مها بصوت أشبه للصراخ.. مين ؟ مين ؟»

«بيقولوا واحدة ست، إسمها شادية وإسم الشهرة " شوشو ". »

«وهي اعترفت فعلًا ؟» . ضحك المحامي وأجابها " من أول قلم " ، تجرع من كوب الماء ثم استطرد « كانوا فاكرين ا/ كريم شريك معاها في الجريمة بس هي أنكرت معرفتها بيه وبكده خرج هو من القضية تمامًا. »

«مش عارفة أقولك ايه يا ا/ شريف »

«قولي " الحمد لله " وانا معملتش أى حاجة »

«الحمد لله ، أشكرك يا فندم جدًا ، كريم هيخرج امتى؟»

«انتي مستعجلة كده ليه؟ ياستي هيخرج لك بالسلامة إن شاء الله بس نخلّص شوية إجراءات كده . »

* * *

- 92 -

ذهب حسام إلى نسرين على مضض ومن باب الفضول أراد أن يخوض التجربة، وصل لها بعد ساعة تأخير عن الميعاد المحدد متعمدًا، حتى وجدها تحولت تمامًا، وكأنه يرى نفسه في المرآة، " ماسوشية من الدرجة الأولى " كما كانت " سادية من الدرجة الأولى" من قبل. تُدرك كل فنون الخدمة وكأنها وُلِدَت هكذا . تعجَّب بشدة لأمرها، ما لها هذه المجنونة الحمقاء ! تلاشت فكرة أن تكون قد أعدت له مصيدة حتى تثأر لكرامتها، فطريقتها وخضوعها وذلها أمامه يستحيل معها أن تتحول مرة أخرى لشراستها السابقة .

كادت أن تقطف له نجمة من السماء أو تبحث عن عصفورة وضعت بيضها للتو لتأتي له بحليها الطازج إرضاءً له وتقرُّبًا منه، كان متعجبًا لما تفعله، هل أحبته لهذه الدرجة ! أم أن هناك سرًا ما .

قضى اليوم معها واستغله أسوأ استغلال وكأنه يسترد ما سلبته إياه من كرامة ورجولة رغمًا عنه، جعلها تفعل ما كان يتمنى أن تأمره به ملكته، طلبَ منها كل ما هو شاذ وهو ممتعض متأفف، أما هي وكأن باب الجنة قد فُتِح لها فكادت أن تطير من الفرحة.

انقضى اليوم بكل ما فيه وعاد إلى بيته تعب من شدة الإرهاق الجسدي والنفسي معًا، فما فعله معها كان فوق احتماله وتصوراته كلها .

وبمجرد أن وضع رأسه على الوسادة حتى سافر مع أحلامه بعيدًا .

- 93 -

كانت تقف خارج سيارتها مضطربة تنظر يمينًا ويسارًا تنفيذًا لتعليمات المحامي بضرورة وجودها بالخارج حتى لا تتعرض لأي مضايقات داخل القسم واعدًا إياها بأنه سيتكفل بعمل كل الإجراءات المطلوبة حتى يخرج زوجها إليها بالسلامة .

ومن بعيد خرج من باب القسم المحامي ومعه مومياء تتحرك بصعوبة، شاردة الذهن والعين، ينتفض خوفًا بمجرد أن يسير أي شخص أو شيء بجواره .

هرولت مها عليهما ووقفت أمام شبح كريم تتعجب لهيئته الغريبة فهو لم يقضِ إلا أيامًا قليلة في هذا القسم والذي يستحيل معه أن يتبدل حاله بهذا الشكل الملحوظ، أسندته وذهبت به إلى السيارة بحرص شديد، وهو مازال في حالة شروده تلك .

بعد أن اطمأنت على جلوس زوجها في السيارة، التفتت إلى المحامي وشكرته كثيرًا وهي تنحنى له تقديرًا واتفقت معه على ميعاد آخر تذهب إليه لتنهي معه ما بينهما من تعاملات مالية مازالت قائمة .

وصلت منزلهما وساعدت " كريم" في الجلوس ثم جلست أمامه أرضًا

«كريم انت كويس ؟»

«.....»

«كريم رد عليا حبيبي»

بمجرد أن سمع كلمة حبيبي تلك حتى أجهش بالبكاء وارتمى في حضنها كالأطفال، ضمته مها بحنان الأم وربتت على ظهره ودموعها تتساقط رغمًا عنها .

«كريم الغمة انزاحت الحمد لله خلاص، انت بريء يا حبيبي»

«.....»

«مش بترد عليا ليه؟ عمومًا ولايهمك احنا لازم نسافر في أي مكان نغيَّر جو بعد تعب الأعصاب اللي شُفناه الفترة اللى فاتت دي.»

هزَّ رأسه بالموافقة وهو يحاول أن يبتسم لها. نهضت سريعًا وخلعت بلوزتها وظلت بقطعتين من الملابس الداخلية. ساعدته في النهوض هو أيضًا حتى وصلا إلى باب الحمام .

خلعت عنه ملابسه حتى وقف كما ولدته أمه وتركت الماء المنهمر من الصنبور يغطي جسده وهو في حالة طمأنينة مستسلمًا لها استسلامًا كُلّيًا حتى أزالت عنه كل وساخاته الجسدية والنفسية.

- 94 -

علم حسام بسفر مها الاستجمامي فلم يحزن ولم يفرح فهو في كل الأحوال قد أخذ قرارًا مسبقًا بعدم ذهابه لها مرة أخرى والبحث عن وسيلة أخرى للخروج من حياته تلك. ظلّ لأيامٍ معتكفًا في المنزل لايخرج إلا للضرورة القصوى، يصلي ويدعو الله أن يشفيه من هذا المرض اللعين "مرض المازوخية" بعد أن قرأ عنه الكثير ووجد ما يقلقه، لأول مرة أيقن حسام أنه مريض وبالرغم من تردده على عيادة الدكتورة مها من قبل إلا إنه وقتها لم يذهب لإحساسه بالمرض بل للفضفضة وإزالة الجبل الذي كان قابعًا على قلبه.

بعد أن قرأ عن المازوخية قرأ عن السادية واكتشف أن "زيزي" أيضًا كانت مريضة وأنها من نقلت له مرضه عن طريق الاعتياد والتدريب وبالرغم من غضبه الشديد مما قرأه إلا أنه لم يستطع أن يكرهها أبدًا فظلت الملكة المتوجة على عرش قلبه حتى لو في أحلامه فقط، ثم توغل أكثر في قراءته واكتشف أن "نسرين" أيضًا نوع أخر من المرضى يسمى "السادوماسوشية" أي أن تكون سادية مرة وماسوشية مرة أخرى بنفس الدرجة ونفس القوة وعلى حسب حالتها النفسية وقتها.

دعا الله كثيرًا أن يضعه على الطريق الصحيح وأن ينير له بصيرته، كان أحيانًا يشرد فيتذكر "زيزي" فينفض رأسه سريعًا من هذه الأفكار ويظلّ يستغفر الله كثيرًا ثم يهوى ساجدًا على سجادة الصلاة. قام بعمل عمرة عل الله ينتشله مما هو فيه، عاد منها مختلفًا بعض الشيء فقد غسل همومه هناك وتقرّب إلى الله كثيرًا.

بدأ في العودة إلى عمله رويدًا، متقطعًا في بداية الأمر حتى نسى الموظفين أمر نسرين وتناساه هو أيضًا.

وبالرغم من بُعده نسبيًا عن هذه الحياة إلا أنه كلما سنحت له الفرصة يدخل على حسابه عبر الإنترنت متلصصًا كاللصوص، يلقي نظرة سريعة ثم يخرج سريعًا وكأنه يخشى من شخص خفيّ يراقبه.

- 95 -

جلست مها ممدة بجسدها على "شازلونج" أمام حمّام سباحة بإحدى فنادق تركيا، تسحب كمية كبيرة من العصير عبر "الشاليموه" وتأخذ بعده نفسًا عميقًا وكأنه تريد التأكد أنها لا تحلم وأنها تخلصت فعلًا من كل الأيام الكئيبة التي كانت تمر بها. بل ولأول مرة منذ شهر العسل تأخذ راحة من عيادتها ومرضاها وحياتها بأكلمها.

أما كريم فكان قليل الكلام والحركة معًا، يتكلم كلمات قليلة ثم يشرد بذهنه متذكرًا مشهد معتز الأخير وهو جثة هامدة فوق فراشه، ثم يستعيد ما حدث له في الحجز وما مرّ به مع "الكبير" ورجاله، فتسقط دمعة من عينه ويغمض عينيه بعدها وكأنه يهرب من هذه الذكريات المؤلمة بالنوم، فتأتيه أيضًا في أحلامه لتنغص عليه منامه.

لمح "كريم" شابًا ينظر إلى مها من بعيدٍ وهي ممدة بجواره، كما لمح الإعجاب الذي ظهر عليه، فتغيرت أعضاء جسده رغمًا عنه. نظر إلى مها خجلًا عندما لمحها وهي تنظر إلى جسده المتغير باشتمزاز.

نهضت بعدها بلا مبالاة من الشازلونج واقتربت من "المسبح". ألقت نفسها وظلت تسبح كسمكة زينة في حوض سمك لا تأبه بأي شيء ولم يعد يشغلها أي شيء. فقد أخذت قرارًا بأن تعيش لمرضاها وألا تلتفت إلا لمستقبلها فقط.

رنَّ جرس الهاتف بجواره فالتقطه بسرعة كعادته وكأنه دائمًا ينتظر شخصًا مهمًا سيزف له خبرًا سعيدًا .

«كنت خايفة تكون غيرت رقمك »

«مين معايا ؟»

«نسيت صوتي تاني يا سمسم »

«ريم ؟» سألها بسعادة هذه المرة فهي آخر من تبقى له فى هذه الحياة

«أيوة يا حسام ، وحشتني أوي، عامل إيه وطنطلك عزة عاملة ايه » سألته وهي تضحك قاصدة المزاح ولكن فى أعماقها لم تقصد إلا إهانته وإهانة عزة

«عزة ماتت ياريم من فترة كبيرة بعد صراع مع السرطان» أجابها وكأن أحدهم فتح جرحًا غائرًا وظلَّ يضغط عليه

«ياخبر ! وانت عايش ازاي يا حسام وبتشتغل فين ؟»

«عزة كتبت لي كل حاجة تملكها قبل ما تموت وبشتغل في شركتها ومصنعها وكبرتهم الحمد لله بتعبى ومجهودى» أجابها وهو يجفف ما تبقى من دموع على وجهه .

«بجد؟» سألته دون أن تستطيع إخفاء طمعها فى هذا الكنز، ثم استطردت حديثها. أنا نازلة قريب يا حسام وأكيد لازم نقعد مع بعض كتير ونتكلم كتير . «انت وحشني أوي يا اخويا يا حبيبي يا اللى ماليش غيرك فى الدنيا ».

وبسلامة نية أجابها «انتي كمان وحشاني أوي يا ريم ، ياريت ترجعي أنا حاسس اني وحيد أوي في الدنيا ونفسي نتجمع تاني زي زمان »

«هيحصل يا حسام ، هيحصل متقلقش ».

* * *

بدأ حسام في الانتكاس مرة واللجوء الى الله مرات . حاولت نسرين التواصل مرة ثانيًا معه ولكن دون فائدة، حتى إنها استعارت أسماءً وهمية على الفيسبوك لسهولة الوصول إليه ولكنه كان يكتشف كل مرة خداعها .

كانت آخر مرة زارها في منزلها بمثابة كلمة " النهاية " التي تكتب في آخر مشهد بالأفلام .

بدأ في التجول مرة أخرى على استحياء بين صور الأقدام . حتى دق قلبه ثانيًا وسال لعابه وتخدر جسده كالمعتاد .

كان يستغفر كثيرًا ويشغل وقته بالعمل ويعقد اجتماعات مفاجئة للهروب من الحالة التي بدأت تداهمة مرة أخرى ، كانت تنجح حيله مرات وتفشل مرات كثيرة .

- 98 -

عادت مها بنتظام إلى عملها وعادت الحياة هادئة مرة أخرى مع كريم. ظلَّ على وضعه لفترة كبيرة حتى بدأ يعود لحياته هو الآخر رويدًا حتى انتظمت الحياة تمامًا مع هجوم بعض الكوابيس على نومه كل حين فيرتجف جسده لفترة ويعود لحالة الصمت القديمة ثم يندرج في العودة مرة أخرى إلى حياته الطبيعية وهكذا ..

حاولت مها أكثر من مرة الاتصال بحسام لعودة الجلسات والعلاج ولكنه كان يتهرب منها في كل مرة، فأحيانًا لا يرد على الهاتف وأحيانًا أخرى يأخذ ميعادًا ولا يذهب إليه، حتى تركته مها أملًا أن يعود إلها برغبته مرة أخرى .

* * *

دخل عليها مريض ذات يوم .

«دكتورة أنا في حاجات بعملها كتير وبيقى مستمتع بيها بس بعد ما اخلصها، بحس بخنقة وشعور بالذنب واقول مش هعمل كده تاني، ومع الوقت الاقي نفسي بعمله تاني وتالت ورابع .»

«طيب ريح بس الأول ونشرب حاجة واحكيلي كل اللي عندك

طلبت دكتورة مها عصبر "ليموناده" ومدد المريض على الشازلونج بعد أن أعطته حقنة لإرخاء الأعصاب .

«احكيلي بقى من الأول خالص »

«انا متجوز يا دكتور وفي حاجات بحبها تحصل قبل العلاقة الزوجية » كان يتحدث على استحياء بصوت منخفض

«زي إيه؟»

«يعنى مثلًا احب أضرب مراتي قبل العلاقة، وبحب أشتمها أثناء العلاقة وأحيانًا أحب أشوفها وهي بتمشي زي الكلب ورايا » صمت قليلًا ثم استكمل حديثه، «أنا آسف يا دكتور على اللى بقوله ده، بس دي الحقيقة »

«آسف على إيه؟ انا هنا عشان اسمعك وأساعدك. بس كنت حابة نتكلم في الماضي شوية الأول، عايزاك تحكيلي عن طفولتك»

«أكيد يا دكتور، وأنا صغير كنت بحب أضرب العيال جدًا ومش بستريح إلا لما أشوفهم بيتزفوا قدامي، وكنت بحب أكون انا القائد وهما يمشوا ورايا ويسمعوا كلامي، ولما كنت بشوف بنت معجبة بيا كنت بشترط عليها الأول تبوس إيدي ورجلي عشان أوافق ارتبط بيها، في منهم كانوا بيرفضوا بشدة وفي بنات كانت بتوافق بل بالعكس كانوا بيبقوا مبسوطين ولما ارتبط بواحدة فيهم إبدأ في الطلبات

اللي بتريحنى زي اني اقرصها أوي أو اعضها لحد ما تصوّت من الألم، الموضوع ده كان بيثرني جنسيًا جدًا ولما كبرت أكتر كان الشعور ده بيكبر جوايا وكنت بتصرف تصرفات أكبر و.....و.....

.....و.....

.....و.....و.....و.....»

ظلت مها تستمع له باهتمام شديد، ودون أن يلاحظ كتبت في الدفتر الخاص به " Sexual Sadism " ثم منحته إتسامة عريضة وقالت له:

«كفاية كده الهاردة خلينا نكمل الجلسة الجاية »

«دكتور أرجوكي ساعديني، أنا مراتي كانت متقبلة الفكرة في البداية على سبيل الهزار بس الموضوع بدأ يقلقها ده غير إنها كل فترة تطلب الطلاق، انا بحبها بس مش عارف أسيطر على نفسي فعلًا .»

«كنت عايزة اعرف انت شوفت والدك ووالدتك وانت صغير وهما أثناء العلاقة الحميمة ؟»

اضطرب المريض وتردد في بداية الأمر، ثم أجاب بصوت هامس " أيوة »

«طيب كفاية كده الهاردة ونكمل بعد بكره إن شاء الله »

* * *

هكذا كانت البدايات، والبدايات فقط؛ حتى تتحول وتصبح هي الطرف الأقوى، ومالكة زمام الأمور في النهايات. تحترق عذريتك وحدها، ترتدي براءتك خاتمًا في إصبعها، تكون حياتك مِلكًا لها وكُلّك لها، مهما كانت قوتك؛ لن تستطيع الفرار منها أو التغلب عليها..

كانت قادرة.. والقادرات الذكيات في قوانينها: هن من تتمسكنّ حتى تتمكّن.

ولكن تمكُّنها كان كإله يمسك بروح عبده، وسيد يتحكم في جسد خادمه، ليكون الطرف الآخر عليلًا خالًا يخرّ ساجدًا أمام قدم مِلكته...

غلاف: محمد عياد